قبلات مميتة

سمير الفيل

قبلات مميتة / قصص

سمير الفيل

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٦٥١٨

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٦٦-٤

قبلات مميتة

قصص

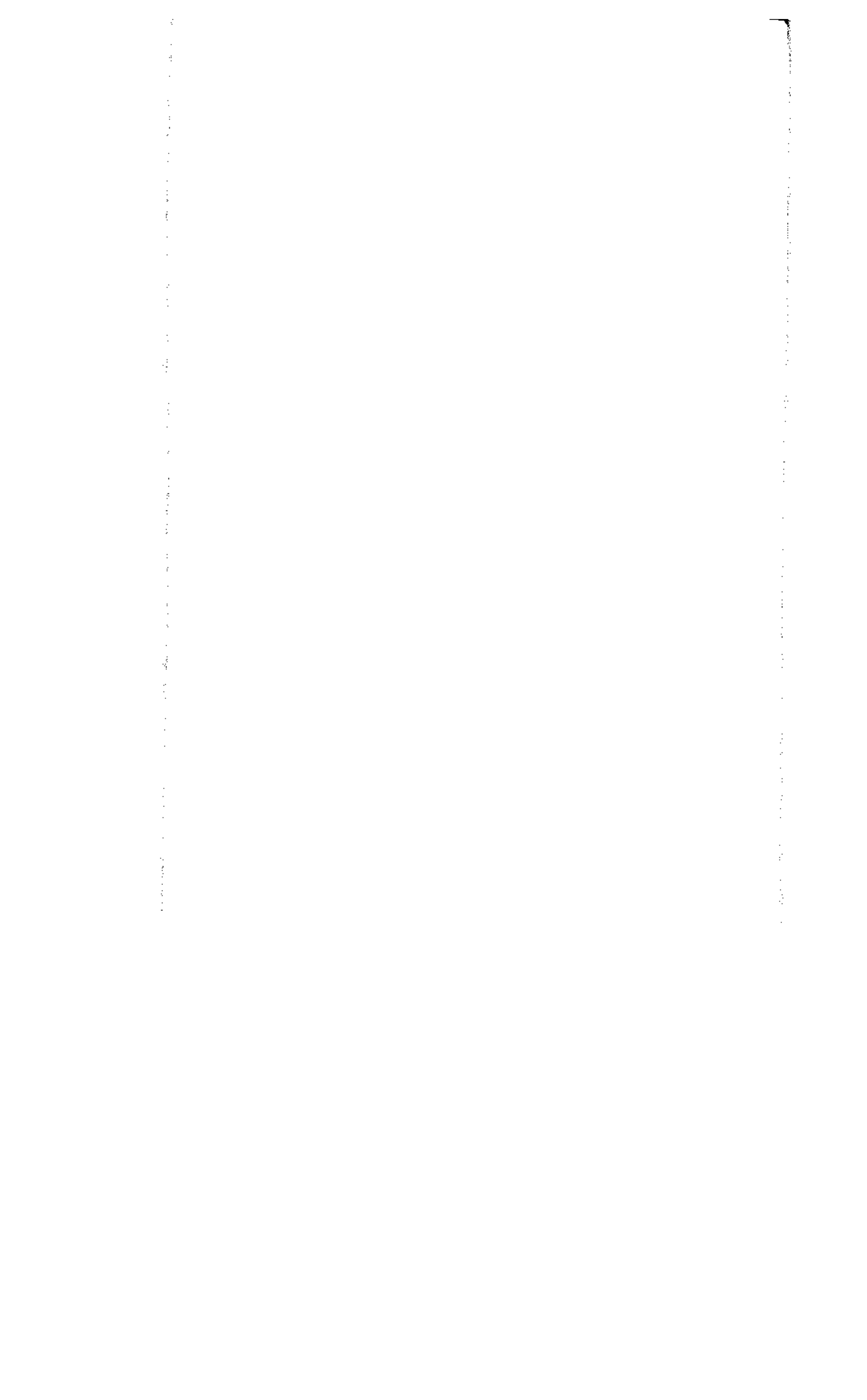
سمير الفيل

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى ميرفت أبوطـــايل .. زوجتي..

وإلى نور شادي الفيل .. حفيدتي ..

....

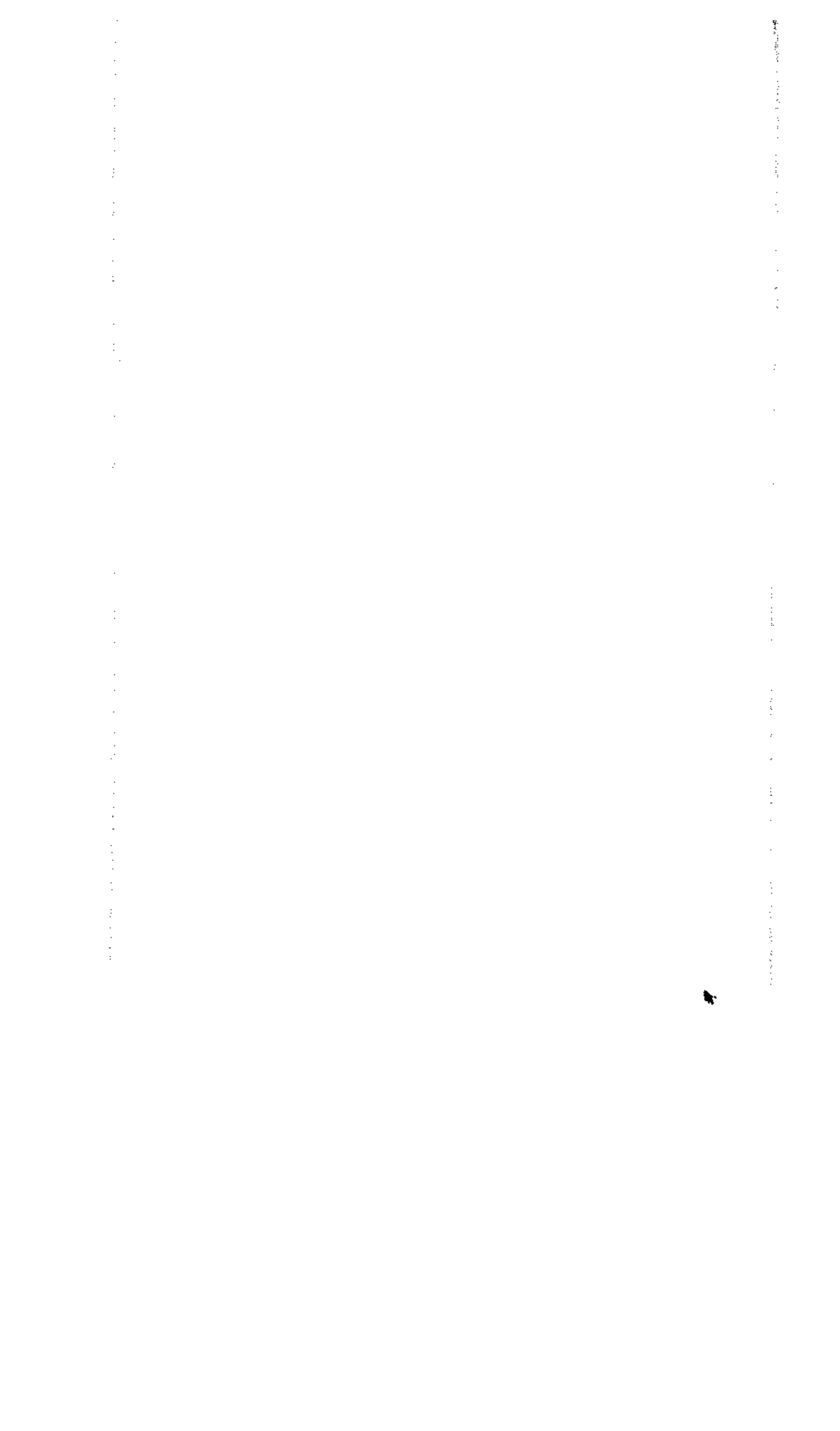
إلى شادي الفيل

و محمد الفيل ..

وهيثم الفيل ..

أبنائي

شواهد



صافرات بعيدة

إنه الانحدار الهائل. الانحدار الذي يخطف قلبه خطفا. عنـــق من المرمر ، وقلادة من الزمرد الأخضر.

زمرد مشطوف بعناية فائقة ، يتلألأ في كل مـــرة يـــنعكس عليه الضوء.

شعر بتماسك عجيب ، وهو يلمسها ، ويؤكد لها دون أن يرتبه الكلام أنه لن يتركها حتى لو كانت كنـــوز قـــارون في الجانب الآخر من البحر .

فكرة السفر صارت بعيدة عن تفكيره ، ولما طوقها بذراعيه قبل خمسة أشهر شعر بالعطر يدوخه فداخ .

كانت المرة الأولى التي يلمح فيها بريق الزمرد في الظلام . هذا مستحيل فعليا ، ربما شعاع من ضوء القمر سقط على الفص الكريم فتوهج .

في ميناء بعيد يسمى " نابولي " كانت صافرات البواخر تنهش قلبه . أما الجوع فقد راح يحرك معدته في تقلصات غريبة رغم خيوط الأسبجتي بالمايونيز .

كانت في نفس اللحظة تقف بكل كبريائها المجروح في الشرفة تحدق في ظلال كثيفة تحط على شجرة التوت التي أثمرت منذ أسابيع ثمرة لذيذة سوداء . تحرك في أحشائها جنين . تدرك أن سنوات قد تمضي كالسكين على عنقها قبل أن يعود من إبحاره ليرى ابنه .

فراولة

فراولة . فراولة حمراء . فراولة حمراء بقمع أخضر . تطلبها في غير موسمها.

تدخل الحمام لتخرج ما في جوفها . تتقيأ فتشعر بحمض له مرارة الحنظل في فمها . تعود للسرير محاولة أن تغالب حالة الغثيان.

بصمة حادة . بصمة فيها مهابة ورقة . كيف تجتمع النقيضان في صورته المرسومة بقلم الفحم؟

لا تعرف كيف قبلت به زوجا ، ورفضت آخرين أكثر وسامة وثراء؟

هل كان السبب هو عوده الفارع ، ونظرته الواثقة الحزينة أم حديثه المقتصد كوخزات الأبر التي تبعثها من السبات؟

ناولته يدها ، وأكمل المهمة على خير وجه .

قرب عود ثقاب من وجهها بعد أن انتهى ، وفيما هو يشعل سيجارته كلمها: أشعر أننا سنفترق.

- مجرد قلق وسينتهي.

- هناك ما يجعلني واثقا من ذلك.

- هل هو سفر عادي؟

- أعتقد أنها الحرب.

- احتمال بعيد جدا. لعلها المناورات المعتادة .

- احتمال قائم.

- لا تجزع . أنت رجلي.

- تعرفيني لا أخاف إلا عليك.

عانقها ودون أن تدري أحست بدموعها تصنع دوائر مبتلة فوق كتفه حيث نسيج قميصه التيل الأبيض .

جاءت ورقة الاستدعاء ، وقبل أن يعد نفسه للذهاب مال عليها ، سألها أن تطلب كل ما تشتهي. لم يكن الجنين قد تحرك . طلبت منه أن يعتني بنفسه ، وأن يعود بأقصى سرعة. تعرف أن هذه مجرد أمنية لن تتحقق بسهولة . لم تطلب منه فراولة. فراولة حمراء فراولة حمراء بقمع أخضر!

طلاء أحمر

طلاء أحمر. وضعته بالفرشاة على أصابع قدمي . طلاء أخّاذ يخطف الأبصار . كنت أضع سدادة الفلين في فوهة القنينة بدقة حتى لا يجف . عجز " فتحي " أن يفهمني ، وأنا أطيل وقت الطلاء . فرحت في أعماقي أنني استطعت أن أخدعه ، فبدأت خطواتي تسير نحو المنحدر بحذر.

طلاء ، وقدمي ادخله في خف رمادي بوردة أوركيدا . تختفي أصابعي العشرة ، وأصعد للفراش حيث أذوب في تأوهاته الممعنة في بطشها. لن تنطلي علي خديعته فهو الذي ساقها إلى نفس الفراش ، فدنسته . وضعت " هدى " رأسها

مكان رأسي . بالتأكيد حين هبط جسدها اختفى رأسها في طراوة القطن الذي تقلص لأقصى درجة بفعل التضاغط.

لم يكن يدرك أنني كشفته وعريت ذاته رغم بودرة الكلام على وجه يابس . حين عوت الذئاب في دمي كان قد احترق عفتها . كنت أرنو للفضاء المرير الرصاصي بغير اكتراث ، وكانت المدية التي أعددتها غير مناسبة لأن أغمدها في المكان الذي حددته بدقة نحو القلب.

دسست له السم في البامية ثم أكثرت من البهارات الحريفة من فلفل وكمون وشطة . خلعت قدمي من الخف ، وتأملت الطلاء الأحمر الذي بدا ساطعا وقادرا على كشف لعبتي الجهنمية .

دفعت بيدي باب حجرة النوم . رأيته يلهث ويخرج لسانه من العطش دون أن يقوى على الوقوف . بيدي أبريق من الزجاج الشفاف وماءه ملطف بالمزهر. منعته عنه بدون أي تشف. تجمدت شفتاه من الظمأ . بيأس أزاح بكفه المرتجف صف العطور فحدثت جلبة شديدة . ويله لقد كسر الزجاجات البديعة الأشكال التي احتفظت بها رغم نضوب العطر منذ سنوات.

انطرح بجسده على الفراش بشكل تراجيدي بائس وهش . كان باستطاعتي أن أدس قدمي في الخف هذه المرة ببطء وبهجة تجاه الحياة التي سأعيشها بدونه.

بكل هدوء ممكن أتقدم نحو الجثة . أحركها بصبر وتبتـل ناحية القبلة كي يرحمه ربه من آثامه التي لا يطيقها بشر.

تلك البقعة

في منتصف الملاءة التي تجعدت وتثنت عند الأطراف بـدت بقعة حمراء على شكل دائرة .

قطرها أقل من ثلاث سنتيمترات . بدت بوضوح كامـل رغم العتمة الخفيفة.

حدقت الأم في البقعة . دعكت عينيها وهي توشك علـى الإغماء .

خوف ثقيل لم تدرك مصدره مصحوبا بتوتر خفي خالطه فرح مخبوء في الصدر. كل هذا ناوشها مع النظرة الأولى .

أضاءت نور الغرفة وحسبت على أصابعها أن أبريل الحالي يضع ابنتها في دائرة الأربعة عشر ربيعا. غطت البنت عينيهـا بيدها . تقلبت في فراشها محتجة .

لم تر الأم صورة عمرو دياب بالحجم الكبير، معلقة فــوق دولابها البني الصغير، وقد تدلت من عنقه سلـــسلة ذهبيـــة . كانت بيجامتها بلون التركواز . حين انكشف عنها جزء مـــن الغطاء أشارت لأمها بيدها أن تطفيء النور فالـــصباح مـــازال مبكرا ، و بها رغبة لمعاودة النوم .

اتجهت إليها ، هزتها : أميمة ؟!

مدت البنت يدها لتسحب الغطاء من جديد ، وكان علـــى هيئة ورود صفراء بحجم كبير . توسلت إليها بغمغمة خافتة أن تتركها تأكل أرزا باللبن مع الملائكة : يوووه.

كررت الأم النداء بغضب هذه المرة ، ولمـــا لم تـــستجب سحبت الغطاء كله فانكمشت البنت بفعل التيار البـــارد الآتي من نافذة الصالة المفتوحة نصف فتحة : أتركيني يا أمي.

هزتها بيد تجمع بين الحنان والشدة : أسمعيني يا ابنتي .

ردت البنت وهي تتثاءب متغاضبة : نعم يا ست الكل؟

فكرت في أول خيط للكلام : صرت عروسة يا أميمة.

ضحكت في وخم ، وهي تبربش برموشـــها : أعـــرف .. أعرف.

فتشت في ذاكرتها عن عبارة مناسبة ،واستعادت نظرة المرحومة أمها القلقة منذ خمسين سنة وهي تدس في سروالها من الداخل قطعة من قماش الكستور وهي تغمغم بسخط : ستفهمك عمتك كل شيء . سربت الأم ما تريد من تصرفات حكيمة تحجبها عن كل عين زائغة ، ومر الأمر بسلام وتزوجت من عوض على سنة الله ورسوله . انتزعت جملتها الأولى بصعوبة : منذ هذه اللحظة لابد أن تحترسي . غطي شعرك . عنقك هذا لا يراه مخلوق . أرتدي بنطلونا يغطي القدمين .

ضحكت أميمة وقد صفا عقلها : لماذا كل هذه التحذيرات؟

ابتلعت الأم ردها وأشاحت بيدها : لم تعدي صغيرة. قبل أن تواصل أميمة احتجاجها أشارت الأم بطرف إصبعها السبابة بإيماءة عابرة نحو البقعة أصابت البنت في الصميم .

رددت كلاما كالمنومة : أنت ترين بنفسك.

تلون وجه البنت بحمرة خجولة . تعكر صفاء وجهها قبل أن تنخرط في بكاء لا تعرف سببه فيما ضمتها الأم ضمة حنونة أودعتها كل فرحها المنكسر بذبذبات حائرة !

وديع

الولد وديع شاب طيب لأبعد الحدود. يضع على عينيه نظارة طبية سميكة العدسة ، ويضع وردة حمراء في عروة الجاكتة السوداء . يتكلم بأدب جم ، ويقوم من مقعده إذا أتت امرأة.

الولد وديع مطيع . لم يعرف عنه أنه أثار شغبا أو أحدث فوضى في أي مكان ارتاده. وديع الذي عمل في حفريات الآثار الفرعونية بتفتيش الجيزة اكتشف تمثالا صغيرا للإله " بتاح" العظيم قلب الآلهة ولسانهم . كان تمثالا من الجرانيت الأسود لمعبود منف. كما عثر هو ذاته وبمحض المصادفة على رأس تمثال من الديوريت للملك خفرع . عاد إلى عمله بهدوء فيما وقف بعد أسبوع رئيسه ليعلن في مؤتمر صحفي عن جهوده التي توجت بهذا الاكتشاف المذهل ، وقد أضاف أن خطته قد نجحت في اكتشاف التمثال والرأس بعد جهد رهيب في التنقيب الذي طال لسنوات . أما وديع فقد ظل تحت الأرض في جبانة الأسرة الرابعة لا يغادرها إلا بمقدار.

يزيح الرمال بهدوء وثقة . يدس يده المدربة في تجاويف متحجرة تعود عليها بحكم خبرته فينتزع أواني المرمر وجعارين الحجر البركاني المطعم بالعقيق.

في آخر اليوم يجلس مع الـشلة يلعـب الـورق ويـدخن النرجيلة، ويسترجع مشهد العازف الأعمى الذي يمرر أصـابعه على " الهارب" فتعلو الأنغام فيما حورس يرفـرف بجناحيـه العظيمين في جلال.

أبوه جرجس معوض فقد الأمل في زواجه ؛ فـالابن قـد تخطى الثلاثين ، وليس معه مدخرات. نقوده صرفها كلـها في تعليم أولاده وبناته ، ومن المفتـرض أن يـساعده وديـع في مصروف البيت.

كلمته أمه في ذلك ، وكلمه أبوه ليضع حـصوة ملـح في عينيه . توصلا لمبلغ معين كان يضعه أول كـل شـهر فـوق الكومدينو بالصالة وبمباركة من إيفون أمه حلت المشكلة.

يدخل وديع البيت في هدوء ، ويخرج في هدوء . يـذهب كل يوم أحد إلى كنيسة العباسية كغيره من المؤمنين . في أغلب الأحيان يتناول طعامه البسيط من الخبز والبقسماط والبـيض المسلوق في موقع الحفريات مع شحاتة أعز أصحابه.

وديع شعر يوما أنه يشبه العازف الأعمى. أحس أنه يدور في الساقية كثور وضعت على عينيه عصابة. لا يعـرف أحـد كيف فكر في نزع العصابة ؟ كانت سوداء قاتمة ولا تـسرب ضوءا . سوداء كالليل الفاحم. هكذا رآها وضايقه منظرهـا

خاصة أن أوتار العازف الأعمى كانت تتهادى إلى سمعه فتؤكد له أنه مهضوم الحق ، مهان .

الولد وديع رفض وتمرد ، وثار . هكذا مرة واحدة بلا أية مقدمات . قال لرئيسه الذي يظهر في برامج التلفزيون : أنــــت تسرق تعبنا وتنسبه إلى نفسك.

أول الشهر لم يضع وديع المبلغ المتفق عليه فوق الكومدينو.

كان وديع مقبوضا عليه بتهمة التآمر لقلب نظام الحكــــم. وفي قبو مظلم كان مع آخرين يلعب الورق الذي تم تهريبـــه في معطف صديقه شحاته حين سمح له بزيارة خاطفة في محبـــسه . يلعبون الورق في ضوء شديد الخفوت.

لماذا يضحك السمسار؟

كان يقفز قفزات صغيرة بين أشجار الورد. مجرد قفـــزات بسيطة في حديقة مهجورة كانت ملك جده. آلت للعائلة بعد موته . السمسار يقف الآن يقلب الأثاث القـــديم ، ويـــسدل الستائر المخملية الثقيلة ثم يشد الـــدوبارة فتنفـــتح في تزييـــق مسموع .

البيت للبيع ومعه الحديقة التي كانت للجد مكانا للراحة ، والسلوى بعد التعب .

قفزات لاهية وبيده الصغيرة يمسح الغبـــار عـــن الأوراق الخضراء ربما يعود إليها شيئا من زهوها.

كانت الأشجار فيما مضى أقل طولا لكنها تمتلىء بعصارة الحياة ؛ فقد كان من عادة الجد أن يرويها بيـــده، ثم يـــشذب الأغصان النافرة بمقص حديدي يلمع في الشمس.

جد حكيم ، قوي البنية ، خاشع لربه ، محـــب للحيـــاة . يجلس مساء كل يوم تحت تعريشة شجرة اليـــاسمين بزهورهـــا ذات البتلات البيضاء الرقيقة لتنشر عطرا خفيفا يبهج الأرواح.

الأرواح؟ يالها من صيغة مناسبة لجمع التكسير الذي حدث فعلا في العائلة حين احتبس كل هذا الحنان مع صعوده الهفهاف للسماء فيما ذرفت الأعين دموعـــا مـــدرارة. جـــاء الورثـــة بسحناتهم المقلوبة ، والوحيد الذي كان يضحك هو السمسار ففي كل الأحوال سيتم بيع البيت للمالك الجديد الذي يـــضع على رأسه قبعة عالية سوداء بحافة محيرة . هذا المشتري نظرتـــه تشع بالخبث وتفيض بالدهاء . فيما الولد يقفز اختل توازنـــه وسقط بجسده على شجرة الورد الجوري فجرحت أشـــواكها يده.

كان يبكي بكاءا مرا ، ربما لهذا السبب دون غيره دوّمت سحابة عفار في المكان وهبط الجد من سابع سموات . مال على الحفيد وحمله ثم راح يضمد جروحه فيما الأبناء يتشاجرون حول التقسيم الشرعي للإرث ويدقون بأصابعهم على الآلات الحاسبة بشاشاتها المضيئة بزرقة باهتة.لقد امتعض الجد لأقصى حدود الامتعاض لأن الولد كان يبكي بكاء يوجع القلب فيما السمسار كالح الوجه يضحك ويضحك ويضحك.

الزاهد

ليس بحاجة إلى أن يذكره أحد بواجبه. يعرف كيف يجعل للقسوة مخالبا وأنيابا توجع إلى أقصى درجة.

هؤلاء العصاة لن يفلتوا من قبضته مهما تحصنوا باليقظة والمهارة والدقة في تنفيذ عملياتهم.

حين يعود للبيت يخلع زيه الكاكي ، بدبابيره النحاسية اللامعة على الكتفين ، ويعلقه على المشجب.

يضم " نورا " إلى صدره ضمات رقيقة لكنه ينسى نفسه ،فيكاد يحطم ضلوعها : آه. ارحمني.

يخلق من ظهر العالم فاسدا . هذا عين ما رآه في الرحبة المظلمة التي تمتليء بصرخاتهم المفزوعة كل فجر : آه ، ارحمني.

لا يهمه أن تتردد في أذنيه صدى الصفعات على تلك الوجوه ، وهو ذاهب لصلاة الفجر . كل ما يهمه أن يحصل على اعتراف مكتوب بخط أيديهم ، وفي الركن الأسفل الأيسر يكون التوقيع مع بصمة الإبهام.

زاهد هو في الشهرة ، وهل من يتبتل مثله في محراب الوطن بحاجة إلى بريق كاذب ؟ ثم أنه يميل إلى العتمة ، ويراها الوسيط الأمثل لممارسة عمله .

ضبط نفسه مرة مستمتعا برؤية الدم يسقط كنقط من صنبور تالف . كان التنقيط من أنف شاب في منتصف العشرين . نهر نفسه كثيرا ، وأيقظها من شرورها . تقدم بهدوء، وأمر بإيقاف " الوجبة " اليومية. عاد بعد لحظات بكوب ماء مثلج . قدمه له فركل الغبي اليد التي امتدت نحوه بالرحمة .ضبط أعصابه. بعدها صعد للمكتب البيضاوي بكسوته الكشمير الخضراء ، حرك بيده لوحة مكتوب عليها بالخط الكوفي " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " .

حركها في مواجهة ضوء المصباح الشحيح الذي يسقط من السقف. نزل بعد ساعتين فوجده قد فارق الحياة.

مات العاصي قبل أن يوقع الورقة التي كانت معدة باعترافه المستفيض ليمهرها بخطه المنمنم الذي رآه وهو يفحص هوامش بالقلم الرصاص كتبها على صفحات رواية لنجيب محفوظ.

ود أن يعرف كيف لبشر أن يحتمل هذا العـــذاب دون أن ينهار باعتراف كامل؟

واجبه يدعوه أن يأخذ حذره خوفا من أن تتسلل إلى قلبـــه عاطفة أو شفقة. أتته همستها ليلة أمس : آه . ارحمني.

نزعت يد قائده الدبابير ، وعلق مكانها نـــسرا وحيـــدا رآه يطوي جناحيه في تخاذل مريب.

كانت ترقية في الظل ، وعلاوتين ، وتسعة من العـــصاة لم يوقعوا أوراقهم . لقد تركوا الركن الأيسر فارغا بشكل يـــثير الاستياء .

حدث نفسه أن الزهد الذي يملأ نفسه له أسبابه ؛ ففي بحثه عن استقرار الوطن نسى مجده الشخصي فهو يعرف أن أية هزة كفيلة بالرجوع لعصور الفوضى والظلام.

امتدت يده لتطفيء النور الذي يهيج ذاكرتـــه . لا يمكنـــه تصور الفوضى . لا في بيته ، ولا في سجنه ، ولا داخل جيبـــه السري تحت البطانة حيث يرتب بكل عناية أورادا قديمة ورثها

عن جده المتصوف . لا يقرأها ؛ فلا وقت لديه لكنـــه يـــشعر بالأمان في وجودها معه . مطوية مع تلك الأوراق التي لن توقع أبدا بعد أن اختفى أصحابها لأبد الآبدين.

كتبت هذه النصوص فجر الأحد

٢٠٠٨ /٤/٢٧

حكايات السرير



كوب حليب

لقد عادت الدلجة .دخلت ابنة معلمي فزيّق الباب . تمددت على السرير ؛ فانحسر الفستان عن ساقيها . احتضنت الوسادة القطيفة. غطيتها بملاءة رقيقة وأغلقت زر النور. فيما أنا أهم بالانصراف جاءت أم زوجتي . وجدتني أحدق في الظلمة خارج الغرفة قبل أن أغلق النافذة .

قلت : استريحي .

ردت : علمت بمرضك، ولكن كيف حال ابنتي؟

قلت : بخير .

هتفت : أين هي الآن؟

رددت من فوري : في البيت.

قالت : ذهبت إلى هنـــــــاك ، و لم أعثر لها على أثـــر. ماذا تراك فعلت بها ؟

بسطت كفيّ مستسلما : لاشيء . ابنتك في أمان .

خرجت وهي تغمغم . بعد دقائق عادت زوجتي كاظمـــة غيظها . قالت إن الازدحام في الطريـــق لا يحتمـــل ، وإنهـــا أوشكت أن تختنق من أنفاس الناس الكريهة. زادت : زحـــام موت. رويت لها ما حدث . قالت باستغراب : تعرف أن أمي ماتت . صرخت وأنا أراجع نفسي : مستحيل . لقد كانـــت واقفة في مكانك بالضبط . سقط كوب الحليب من يدها على الكليم الحائل ، و لم ينكسر .

شباك

وجدت الشباك مفتوحا . دخل فأر يقرقض في بقايا فـــول سوداني تركته تحت السرير . عندما كف عن قرقضته لمحتـــها. فأرة بنية الشعر تغمز له بطرف عينها . راحا يصدران أصـــواتا عجيبة . تداخلت في نفسي : مالي ومال الفئران ؟

كان شيئا غامضا يدور تحت الألواح . عرفت ذلـــك مـــن الصمت التام الذي كانت تقطعه أصوات أقـــرب للتزييـــق .

أوشكت أن أميل بجسدي كي أسترق البصر . كنت أعرف أن هذا عيب ، ولكن فضولي غلبني فرأيت ما لا يمكنني البوح بـــه أبدا.

رصاصة

دخلت الممرضة بحامل المحلول السكري . غرست الإبرة في وريدي . بدأ المحلول ينقط : نقطة .. نقطة ..

دخل المحقق ، سألني : من قتلك ؟

قلت ، وأنا أتلفت حولي : أنا في خير حال.

هزني بكل قوته : وهذه الرصاصة التي أخرجها الطبيب من قلبك. هل تكذبها ؟!

إعوجاج

قال مفتش التاريخ إن في عائلتكم ضلعا فاسدا، وإن كـــل عائلة يقظة لابد لها من بتر هذا الضلع. خلال حديثه رحت أمد يدي بخفاء وأتحسس ضلعي . وجدته فعلا في حالة اعوجـــاج مخيف . هجمت على مفتش التاريخ ورحت أحاول خلع ضلعه

المستقيم ليكون لي : سوف أضع مكانه ضـــلعي الأعـــوج . بصعوبة خلصوه من هجمتي الوحشية. بقيت فترة أقارن بـــين الضلعين تحت طبقات اللحم وأنسجة الأثواب القطنية .

الفاسق

بيده أزاح كل الهـــدايا الـــتي كانـــت مـــصفوفة علـــى " الكومدينو" ، ثم ركل باقة زهور الأوركيدا . سألني بنـــبرات جافة وهو يحدق في ملامحي بقسوة : أبوك نام مع زوجـــتي . وجاء وقت القصاص ؟

قلت وأنا في غاية العجب : لكنه مات من زمـــن فكيـــف تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ؟

لطمني بكذبته : أنت ثمرة الخطيئة.

حلواني

جاء بصينية هريسة . كانت ما تزال ساخنة ورائحتها شهية تفتح النفس . وضعها بجوار علب الأدوية .

قرصني في فخذي بمودة : " من يرد الدح لا يقل الأح" !

ثم ضحك ، وأقسم برأس جده أن الهريسة بالبندق التركي ، ولابد أن يؤكّـلها لي بنفسه.

كانت لذيذة ودسمة أما حبات السمسم وقطع البندق فتقرقش تحت أضراسي . بعد أن انتهى أخبرني بصوت يشبه مديته الثلمة التي راح يقربها من عنقي رويدا رويدا: ابنة أختي التي أغويتها قد دلتني على مكانك.

صعقت عندما علمت أنه قد دس لي السم في الهريسة ، وأن المدية التي راح يلوح لي بها لم يكن بحاجة إليها غير انبجاس قليل من الدم قبل أن أصعد.

في خفاء

قدري أن أنام هذه النومة . لا أحد يرعاني . زوجتي فرت وأولادي غادروا البلدة إلى بلاد تنشر الديمقراطية برصاص البنادق . لو أن أمي حية لوهبت عمرها لي ، ولفعلت المستحيل كي يفرح قلبي المكلوم.

قبل أن يأخذني الشرود وجدت امرأة تتخفى في عباءة سوداء كالليل . كانت تتخبط في خيوط الظلمة بعد أن كُسرت فوانيس الردهة . ظلت تسأل عني بالاسم . خطفني

النعاس بخدر لذيذ . خدل جسمي فنمت . كانوا قـد دلوهـا على عنبري ، ولما وضعت يدها على جبيني وقاست حـرارتي هزت رأسها باطمئنان : إنه بخير ، ولا يخـشى عليـه .حـين يصحو لا تخبروه أن أمه كانت هنا!

ريشة

أخذ حسوة بمنقاره المدبب الدقيق. جاء وهبط على عارضة النافذة . أشرت له أن يأتي حيث أنـا ممـدد في سـريري. لم يطعني. مرت سحابة ثقيلة أظلمت الدنيا على أثرها. في غلالـة الرماد وقف على حافة السرير . كيف عرف أنني لما كنت في الحديقة قبل شهرين وجدت الأطفـال الأشـقياء يـصعدون الشجرة ، ويخمشون بأظفارهم العصفورة الأم ؟ هل أخبرتـه بأنني كنت السبب في أن يكفوا عن عربدتهم حين خلصتها من شرورهم وتحسست البيض بباطن كفي ،واطمئننت عليه قبـل أن أهبط ؟

حين اكتمل مرور السحابة رف ، وطار بعيدا . ترك علـى الوسادة ريشة جد صغيرة . كانت تضيء في الليل ، ولم يكن يراها أحد غيري.

شفاف

جاء قاطع الزجاج ، وأخذ مقاييس النافذة عرضا وطـــولا . صوب نظرة عدائية لكل من في الغرفة. لاحظت أنه يتجــاهلني حتى أنه لم يلتفت إليّ أدنى التفاتة بل صوب نظـــرة للجــدار خلفي حيث اللوحة التي رسمتها لزهرة برية تنتحب في غموضها البنفسجي قبل مرضي . حين جاء بعد يومين لتركيـــب لـــوح الزجاج بادرني قائلا : المرة السابقة لم تكن هنـــا. وكـــان في اللوحة زهرة بنفسجية شاحبة . ترى من قطفها ؟

كوب شاي

أزحت كوب الحليب بعيدا ، وأصابع البقسماط. في تلـــك اللحظة كنت أفكر في كوب شاي من نوع الخرز الذي أحب أن أقلبه مع حبات السكر . الخرز المدور الـــدقيق في نعومتـــه اللافتة .

طرقتْ الباب ودخلت . رأيت بيـــدها الكـــوب الـــذي تصورته . قالت أنها قادمة توا من حقول الشاي في ســـيلان . كانت تشبه تماما الفتاة ذات الـــساري الفـــستقي بـــضفيرتها العريضة ، والتي رأيتها آخر مرة -قبل مرضي -على الغـــلاف

فاقع الصفرة فيما أنا أمر بشارع النقراشي . كنت أود أن أبتاع باكوين، و لم يكن معي أية نقود.

كنسمة آتية من المحيط الهندي جاءت . وضعت كوب الشاي على حافة النافذة بألقها الأمشيري النفاذ، وفيما هي تغادر اتسعت ضحكتها : لقد سمعتك !

تراث

للجريدة ثلاث وظائف مختلفة. أن تقرأ ما بها من حقائق مغلوطة ، أو أن تقشر عليها سمك البلطي وجبة الدمايطة اليومية، أو أن تغطي بها جثة الشخص الذي ضربته سيارة حكومية بأرقام مطموسة وفرت.

على سريري وجدت لها فائدتين إضافيتين : إخفاء وجهي الممتعض بزواري الثرثارين ، وأخيرا أن توضع بين ورقتين منها حشرة البق ، وتدهس بالضغط المتوالي بالإصبعين .

حشرة لعينة فرت من بين الورقتين المضغوطتين . بدمها الأسود الثقيل صبغت الحروف . كان أكثرها تضررا تلك الحروف ذات النقاط التي تعب أبو الأسود الدوءلي في وضعها قبل عدة قرون.

احتكاك

احتك ابن عمي بالحارس، وهو قادم بعمود الطعام المصنوع من الألمونيوم. منعه من الدخول ، وحدث أن هرول كي يغلق النافذة المطلة على الردهة ، كما أوصد الأبواب لحرصه على راحة المرضى! بعد أخذ ورد ، وشخط ونطر ، سمح بمرور نصف الشحنة ، وفيما كان منفردا بالوجبة دخلت قطعة عظم حلقه . لم يتمكن أحد من إخراجها . نقلوه على الفور إلى غرفة الطوارىء . دخل ابن عمي بالعمود ، وألقى نظرة على الخارج حيث بدأت الجلبة تهدأ وتراكض الأقدام يخفت كي ينقذوا الحارس من آلامه الغير محتملة . كان يؤكد لي بين عبارة وأخرى أنها لم تكن قطعة عظم بل مسمار بطول أربعة سنتيمترات ، لا يعرف كيف اندس في الطعام رغم أن لا أحد فتح العمود غيره!

المُـلة

عصاني النوم ، فمددت يدي أتلمس الألواح الخشبية المصفوفة بالعرض ، والممتدة بين عارضتين خشبيتين قويتين.

كانت مثل خطوط السرطان والاستواء والجدي التي تمر بقارة سوداء بلون الفحم . وجدتني أهبط بصعوبة فتلامس أمشاط قدمي برودة البلاط.

رحت أخلع الألواح ، وأحاول أن أمددها طوليـــا علـــي أغفو . حين فشلت لم يكن هناك بد من البكـــاء، وقبـــل أن تنحدر دمعة على وجنتيّ وجدت القارة تـــتقلص والألـــواح تنجح في الاستواء على العارضتين الطوليتين ، وكان أن نمـــت أحلم بالعبيد يفرون من سجون تلك القارة.

الزاحف

رأيته. وحدي رأيته . يزحف من الخرابـــة المجـــاورة لمـــبنى المستشفى ، ويتسلل نحو شق في الحائط الملاصق لعنبر ١٥ الذي تم تسكيني فيه . أرتعدت لرؤياه ، وكنوع من رد الفعل غـــير المقصود وجدتني أصفق بكفي ، وأنا أدعو شخصا لا أعرفـــه كي يتتبعه : هس .. هس..

رأيته يدفع بلسانه المشقوق خارج فمه . كانـــت عينـــاه المدروتان تتحركان حركة دائرية مفزعة .

هو الليل سكن له ، والإبرة تشك ذراعي ، فيما أنا أســـير سريري . و" همت " التي قبلتها منـــذ ٢١ عامـــا ، تزوجـــت وسافرت وأنجبت ، ولما مات زوجها بقيت أرملة ،وربت بناقما وصبيانها على الفضيلة . وجدت صورتها في صحيفة " الأهرام "

أما مثالية . قصصت الصورة الورقية ، وضعتها في حـــافظتي ، وهائنذا الآن وحيد ، أخشى أن يتسلل للغرفـــة ، فيلـــدغني : هس .. هس..

أخاف الزواحف والجوارح ، والأنس والجـــن . أخـــاف نفسي الأمارة بالسوء . أنصب الفخاخ للبنت " تحية " اليتيمة ، طرية العود كي أظفر منها بلمسة أو ابتسامة ترطـــب هجـــير روحي : هس .. هس..

أراه اللحظة ينساب على البلاط البارد . يتحـــرك نحـــوي بانتظام عجيب مطلقا فحيحا كاد يـــشلني . لابـــد أن أقـــرأ المعوذتين سبع مرات ، وأنتصب قائما ، مباعدا ما بين ســـاقي حتى لا يطولني سمه : هس .. هس ..

كم هو الليل طويل وقاس . لماذا أخشى الثعبان وهـــو لم يلدغني من قبل ؟ لماذا أخشاه : هس .. هس..

وقت

كانت ثريا جارة لنا في بيت العائلة القديم . وجدتها في عنبر النساء تنتظر دورها في استئصال الكلى . لاحظت شـــحوب وجهها ، ومستني ارتعاشة يديها بدون مناسبة . صعد الدم إلى

وجهها وأنا أخبرها أن كل شلة الصبيان بالعطفة قد أحبوهـــا فقد كانت أجمل فتيات الحارة بشعرها الذهبي المقـــصوص في فتنة . مالت على أصيص زرع بجوار الممشى الضيق .

قالت وهي تهديني وردة : لكنك لم تقل لي وقتـــها هـــذا الكلام .

أطرقت ، وهي تستجمع فرح الدنيا كله : معقول .

سألتها وأنا أشعر بقلبها يدق بعنف : الوقت لم يتبدد كلـــه سدى.

الأسود

ظلم الدنيا كله حط على كاهل هذه المرأة التي تعتلي سريرا محطما في العنبر رقم ٩ . مات زوجها بعد ليلة الدخلة بيومين ، وحين خلعت الأسود من على جسدها الفائر بعـــد الأربعـــين تزوجت للمرة الثانية . سافر زوجها العريس الجديد من مينـــاء سفاجة في عبّارة متهالكة . وسط البحر انشقت المركب وابتلعه الموج لكنهم أحضروه لها في صندوق .

بين موتين تعيش ، وقد قررت هذه المرة ألا تخلع الأســـود بتاتا. خلال شهري علاجها تعرفت على " رزق " ميكـــانيكي

السيارات بالشهابية .أراد أن يقنعها بتجريب حظها مرة ثالثة فرفضت بكل حسم . طوحت رأسها بغضب – متحدية إياه – وهي تمسح دمعة فرت من مقلتيها : إن كان ولابد تبقى الدخلة بالأسود. وقد حدث هذا بحذافيره ، ولاحظت أن الزوج لم يمسسه سوء !

يوم المغادرة

صعب علي أن أترك سريري رغم أن ارتفاعه العالي كان يؤلمني في الصعود والنزول. وبرودته القارصة تجعل القشعريرة تمسك جسدي فهو من الحديد الصديء المحايد. لكنني قبل ساعة واحدة من المغادرة شعرت به في غاية البؤس خاصة أنني كشفت عريه إذ نزعت ملاءاتي المزركشة التي كنت أتباهى بها على أقراني فبان قبحه . رأيته متقشفا ، بائسا ، وحزينا ، وكنت قد تعودته ، وألممت بمزاياه وعيوبه . كانت تربيتي عليه تعني أن وقتا مضنيا يمر بي ، وان الخلايا في سبيلها كي تصلح ما بها من أعطاب ، وعليّ الصبر والاحتمال وعليه التأني والانتظار . جاء الأهل فحملوا أغراضي ، وستّفوا كتبي في أكياس مذهبة الحواف عليها أحرف إنجليزية معتبرة و لم

يلتفتوا لشيء في الغرفة حتى نبهتهم للوحة الزهرة البرية وكانوا - المجرمين - سيتركونها عن عمد.

وحدي وجدتني ألتفت إليه ، وأسرع الخطو نحوه ، فأستلقي عليه للحظات . بنفس عريه وقبحه المثير للغيظ . شعرت في تلك الهنيهة أنه يمنحني شيئا من الدفء الذي فشلت في الحصول عليه من أسرة أخرى غاية في الفخامة مرت بي ونمت على ألواحها لسنوات . دفء كان يمنحني إياه في الليالي الباردة بحساب دقيق . ملت أتحسس أعمدته دون أن أنبس بحرف فقد كان الجميع يرمقونني في وجوم وقنوط مثيرين للغرابة.

كتبت هذه النصوص فجر الأحد
٤ / ١١/ ٢٠٠٧

الرابط والمربوط



على حافة الشرفة البعيدة وقف ديك ذهبي الريش يـــصيح: كوكو.. كوكو..

وتحت الشرفة مضى شاب نحو عمله فوصـــل " المغـــسلة " قبل موعد فتح الباب الحديدي الرئيسي بنصف ساعة. رأى أن يحتسي شايا في " العازق" الذي كنت أجلس فيه بعد أن دفعت المعلوم ، وخرجت بعد فك السلسلة لكي تكون عودتي قبـــل المرور بوقت كاف ؛ فأرقد على سريري كمـــريض مطيـــع ، ملتزما باللوائح والقوانين، والتعليمات الصارمة التي يمكنـــك أن تطرف عينها بربع جنيه أو نصفه.

في هذا العازق عرفت بشرا كثيرين، وكرهت الفقر كراهية التحريم ، و لم أستسغ كركرة " الجوزة" وأنفاس الحشيش الذي كان دخانه يملأ الجو فيضبب نشرات الأخبار بلزماتها الموسيقية الصداحة.

الشاب الذي يعمل في المغسلة اسمه رشدي، وقد تزوج بفتاة مصيبتها أنها منحته نفسها قبل الزفاف بأسبوعين في " بروفة" مستعجلة غيرت مجرى حياته تماما.

فبعد ضرب الدفوف ونفخ الأبواق وهز الأوتار صعد إلى " عش الزوجية " فوجد أنه قد دفع دم قلبه مقابل شيء ناله بكل سهولة ، وربما لهذا السبب ذاته شعر بأن ثمة خلل قد وقع وعليه إصلاحه ، وهو ما أدى لمضاعفات خطيرة ، منها مثلا أنه لم يستطع بعد الزواج الرسمي أن يفعل شيئا سوى الندب في هدأة الليل ، واختلاس بعض البكاء بعيدا عن الصحبة.

لكنه أصر على معالجة الأمر بالذهاب للشيخ الجنيدي الذي وضع يديه على سر فشله. كان الشاب مربوطا ، ووضع " الربط " أعلى شجرة تين بنغالي في قرية بعيدة بمحافظة نائية هي " الوادي الجديد " .

أقترض رشدي مائتي جنيها، وسلم المبلغ بالتمام والكمال للشيخ جنيدي الذي كان عليه أن يتوصل للجني الذي رفض بدوره استلام أقل من خمسمائة جنيها لأن تكاليف السفر بعد غلاء البترين قد ارتفعت لما فوق الطاقة ، وبعد مفاوضات مضنية تدخل فيها بشر وجن طيبون تم تخفيض المبلغ إلى ثلثمائة وخمسين جنيها ، وعلى بركة الله تمكن منها وتمكنت منه ،

وجاء الولد بعد عام كامل إذ لا تحسب مدة الانتكاسة وفك المعكوس.

وقد حكى لي شاب المغسلة كل ذلك في الجلسة الوحيدة التي جالسته فيها داخل العازق ولعله فطن إلى أن من حاول إيذائه وربطه كانت الفتاة التي أكل معها ترمسا مملحا في رأس البر ، وفسّحها بفلوكة أمام اللسان ثم هجرها بلا سبب سوى أنه لا يرضى بالزواج ببنت أمسك يدها وركب معها فلوكة في خلوة شرعية إذا اعتبرنا البحر محايدا وبلا عيون أو آذان.

ومن أجل أن ينتهي العكوس كان عليه أن يرتدي ملابسه الداخلية بالمقلوب ، وأن يدخل الحمام بظهره ، ويدس قدميه في خف من وبر الجمل ، وكان عليه ألا يواقع زوجته إلا في الظلمة الخرمس ، كما شرب لترين ماء ابتلت فيه آية الكرسي المكتوبة على رقعة ورق بمداد أخضر. والحمد لله أنه قد أفلح في أن يثبت للعالم كله رجولته بعد أن تعرض لزلزلة تهد الجبال فما بالك الرجال.

حكى لي كل ذلك ونظر في ساعته وقام مستعجلا لدفع حسابه فقط والذهاب إلى مغسلة المستشفى التي لا ترحم ، وكان عليّ أن أعود لسريري قبل موعد المرور الروتيني بدقائق .

كانت رأسي مصدعة من حكاية الربط ، وهو ما دفعني لأن أنام فعلا فور وصولي لسريري ، فيما الإدارة بجلالة قدرها تمـــر على العنابر للتأكد من راحة المرضى وتفقد أحـــوالهم في ظـــل حكومتنا الرشيدة التي بالرغم من جهودها العظيمـــة في بنـــاء المجتمع وتطويره لم تتمكن حتى اليوم من التغلب على مـــشكلة الربط وكافة أنواع العكوسات الأخرى!

مساء ٢٠٠٧/١١/٤

الولد سيكا / درن



الولد سيكا ترك شغل الموالد ، وراح يتاجر في العملة لكنه ظل في عمله الجديد الذي أطعمه الشهد يصفر بفمه ، ويدبدب بقدميه كلما أبرم صفقة ناجحة ، وفي قلبه لوعة الفراق حتى ، وهو يبصق في منديله دما قانيا .

" سيكا " اسمه ، وتاريخه لا غبار عليه ؛ فهو لم يسرق أويزني أو يشحذ بل كان طبالا لا يشق له غبار . يضبط " وسط " الراقصة على الواحدة والنصف ، وله معرفة عميقة بالربع تون .

يقول لمن صادقه صداقة أخوة إن محمد عبدالوهاب كان له عدد من الملحنين السريين ، وقد التقى بأحدهم ، وكان يتضور جوعا حتى أشفق عليه ، وصحبه إلى محل كوارع بسيدنا الحسين ، وفتّ له رغيفين ، وأكل معه في طبق واحد اللحم

والمرق بالثوم والخل ، وعوضه ولو إلى حين عن أيام الفقـــر ، ولله يا محسنين.

" سيكا " الذي تلطّـــم في الموالد كان يضع طربوشـــا أحمر على رأسه ، ويطوحه كلما افتتن بالنغمة أو جذبته وسط الراقصة ، وهي ترفع ساقها في الهواء وتنزل علـــى وركهـــا ، وتقول بصوتها قبل أن يتكلم جسدها اللدن : كيـــد العـــواذل كايدني .

ولما وقف السوق ، وانتشرت " أشرطة الوعظ " بـــسبب الصحوة الإسلامية لم يجد أمامـــه إلا أن يـــضع الطبلـــة في " الصندرة " ويبدأ من الصفر.

ما أحلى الصفر إن كانت نهايته أرصدة في البنك تشد أزره، وتسند ظهره ، وتجعله يمشي في حي الشرباصي مصعرا خـــده كأنه قد أصابه ما يصيب الإبل من أمراض ذكرها أمرؤ القيس في أبياته .

هل حكى لكم أحد عن حفل زفافه؟

المجنون الذي لم يعجبه دق الصبي للطبلة خلـــع جاكيـــت البدلة، وراح يدق " الواحدة ونصف " على أصولها حـــتى أن الراقصة سخنت وتمايلت فسحرت الحاضرين جميعهم . وهو –

إبن الكلب المسلول – رفس النعمة بقدميه ، وأيقـــظ الفتنـــة النائمة ، فبعد أسبوعين تخلى عن تجارة العملـــة الـــتي تطعمـــه الشهد ، وعاد إلى الموالد وحفلات السبوع –على الـــضيق – ونسى مجده ورصيده البنكي لأنه غاوي فقر ، وكان يرد على منتقديه من أصحاب اللحى كلما عايروه بما أحدثه من انقلاب في الحتة : هذه الصوابع خلقت للدق و لم تخلق للعد!

دمياط مساء ٢٠٠٧/١١/٤



عين الجمل



جاء فني الكهرباء ، وصعد السلم الخشبي . دور بيديه المدربتين المصباح الخاسر حتى خلعه ، ووضع آخر بديلا عنه . فيما هو يهبط السلم اختل توازنه . لم يكن هناك بد من أن " يجبس " يده ، ويرقد في عنبر ٨ عظام وهو المجاور تماما لنا.

كان يكره ضوء المصابيح حين يأتي الليل ، ويطلب من رفاق عنبره أن يضغط أحدهم الزر لينام ، ولم يكن أكثرهم يستجيبون لطلبه بسهولة.

في أوقات الصباح الأولى كان يحلو له أن يحضر لعنبري كي يقرأ " الأهرام " . يبدأ بصفحة الرياضة فيسب المهاجمين الذين يضيعون الأهداف برعونتهم ، ويتبعها بصفحة السياسة فيشتم الزعماء الورق الذين يضيعون الأوطان بحماقاتهم . يشتم بكلمات يعاقب عليها القانون أما صفحة الأموات فلم أضبطه

ولو لمرة واحدة يشتم أحدا إذ كان يستغفر لهم جميعا ملتمسا لهم الأعذار.

في مرة جاء العنبر طفل وكان يحمل جملا بني اللون من القماش القطيفة . حمل الولد على ذراع وعلى الذراع الآخر حمل الجمل ذي السنامين . رأيته ينهر الزوجة التي قدمت الطفل بخطوات مرتبكة؛ لأن عين الجمل قد طارت . قلت أواسيه :

ما العين إلا زر من الصدف .

هز رأسه بغاية الأسى : لكنه الجمل الذي أهدته لي المرحومة أمي عند نجاحي في امتحانات " القبول"!

كتبت مساء ٢٠٠٧/١١/٤.

زهرة صفراء



يوم أن صعدت سطح المستشفى لأنشر بنفسي ملاءة السرير انخطف قلبي لرؤية تلك الزهرة.

كانت محشورة بين مربعات البلاط ، وحولهـــا أعـــشاب خضراء صغيرة تقاوم الذبول.

زهرة رقيقة أنبتها المطر وقطرات الندى الصباحية المتذبذبة.

حبست خبرها عن كل المرضى في كافة العنابر . رأيت أن الله كافأني لصبري على الغلب وطول بالي فمنحني وحدي هذه الزهرة .

كنت أختلس أية دقائق كي أتسلل إلى الـــركن القـــصي فأجدها في انتظاري بنفس استقامتها وكبريائها الصامت . تميل

مع هبات النسيم فتسري في قلبي أفراح لا نهاية لها . قبـــل أن أغادر بيوم واحد وجدتها ذابلة . عنقها مدلى وكأنها تعتذر لي .

لم أقو على معاتبتها فقط لامستها بباطن كفي فـــشعرت بارتعاد خفيف ينتقل من بتلاتها المذعنة الرقيقة إلى خلايا يدي .

مساء الأحد ٤ /٢٠٠٧/١١

قبلات مميتة

دوران

في دوراها المثير راحت تدبدب بقدميها الصغيرتين ، العاريتين على الأرض المليئة بالحصى . تتلمس المركز الثابت ، وتلف بلا توقف . حين يشتد بها الجوى تنضو قطعة من ملابسها . وحيدة هي ، وصورته في الإطار بالأسود والأبيض . بغليون من خشب عتيق ، بلا دخان يتصاعد . تدور ، وتنضو قطعة أخرى حتى شعرت أنها خفيفة خفة لا يمكن تخيلها أبدا.

في تلك اللحظة انشقت الظلمة عنه . طوقها بساعدين قويين . لثمها في عنقها . لم تتوقف عن الدوران ، لكنها شعرت أن الأرض توقفت .

سقطت حين اختلت خطواها التي ارتبكت بتأثير القبلة المدوية . حين امتدت يدها لتضيء النور لم تجد أي أحد .

ذوبان

قيل عنها أنها حرام ، و" مالك" بالذات قال فيها الكثير . لكن كأسا واحدة قد تصلح من الأمور أعسرها .

هكذا وجد نفسه يعاقرها ، وهي تشعشع في الطاسة ، وجسده لا يشعر بثقله حتى أنه ودّ لو يطير مثل فراشة ملونة رآها صباح أمس في حديقة المدينة .

قيل أنها حرام ، وهو الفتى الأمرد ، المتعلم ، ابن الناس ، أوشك أن ينهي حياته عندما هجرته ، وفضلت عليه غريمه المحامي ، طويل القامة ، مفتول العضلات . إهتدى لحل وسط . ألا يموت وألا يحيا ، وأن يبقى في المنتصف تماما. حل وسط ، وخير الأمور الوسط . لم ينه حياته ، ودون أن يتمكن من نسيانها رفع كأسا ثانية فشعر بالظمأ أكثر . حدّث نفسه أنه سينساها ، وكانت دهشته هائلة أن وجدها تجلس أمامه على نفس المنضدة. لما عاد إلى نفسه بعد لحظات من شروده وجدها بفستان السهرة المشغول بالخرز الأزرق . توليه ظهرها بعد أن ملأت كأسها حتى الحافة . دون كلمة واحدة تماس الكأسان ، وفي غبطة مرتبكة مررت شفتيها على عنقه . قبلته قبلة أودعتها كل أشواق السنين الخوالي . ثم ذابت في عتامة كأسه الزجاجي الشفاف.

وردية

حين أنهى ورديته المسائية مرّ على بائع الفول ، وابتاع أقراص الطعمية الساخنة ، وبعض الأرغفة البلدية ، وعرج لعربة خضار ومنها اشترى حبتين من الطماطم المتوردة .

صعد السلم المعتم فوجدها في ثوب الشيفون الأحمر ، وقد انحسر عن كتفيها . كانت ترمقه بفضول ، وتوقع أن تكون الليلة مختلفة لسبب يجهله فيما تحاصره ظنون لا يقدر على البوح بها . تصور أنها ستقوم حالا لتجهز السفرة . تقدمت نحوه بعد أن أغلقت الباب الذي كان مازال مفتوحا ، شعرت ببرودة الجو وبدلا من إحكام الروب على جسدها المشتعل بالفتنة فكت الزر الأقرب إلى نحرها ، فانفلت من العروة . خلعت عنه ملابس الشغل ، ففغم أنفها رائحته الذكورية المميزة. ارتعش من تيار الهواء البارد الذي جاء من نافذة حجرة النوم، قبل أن يرتدي بيجامته مدت يده تعانقه.

قبلتها كانت حارة ، ودودة ، لم يتمالك نفسه إذ جذبها نحو الفراش . شم رائحة عطر لم يألفه . عطر ثقيل يدوخ الرأس . امتدت يدها تطفيء المصباح ، وارتعش الجسدان للحظات.

أرقته أحلام مزعجة . قام في ساعات الفجر رائقة الضوء . لمح أقراص الطعمية ، جسها بيده فوجدها باردة ، أما الأرغفة

فقد تيبست . انكشفت له أسرار صورها له عقله المضطرب ، خايلته طيلة تقلباته الممعنة في السواد أطياف تمرق في الحجرة . لما خرج إلى الشرفة وجد الناس نائمين عدا إمام الجامع ، كان يحرك مسبحته في يده وهو يسعل فيما تتحرك السحب المتكاثرة جنوبا في سماء رصاصية بليدة.

خطاب

بعد كوب الشاي الثقيل فكر أن يدعو زكية ليكتب لها الخطاب الذي ألحت عليه كي يسطره لزوجها المسافر إلى الخليج للعمل في مهنة المعمار.

نادى عليها بأعلى صوته أن تصعد ، وهي لم تكذب خبرا . جاءت بالأوراق والقلم الأبنوس الأسود وأظرف الخطابات ماركة " الطائرة " بخطوطها الزرقاء والحمراء مؤطرة محيط المستطيل الورقي .

جلست مواجهة له تماما ، وبدأت تملي عليه ما تريد من طلبات ، وتعلم زوجها الغائب بوحدها ، مستجيرة من سطوة أحزانها بطلب عودته قبل أن ينفذ صبرها.

خيط تفكيرها انقطع حين وجدت يده تعدل حمالة قميصها الستان الخفيف. لم تجرؤ أن تبص في عينيه العسليتين ، فقد كانت تعرف أن وحدته تضنيه بعد موت السيدة حرمه وزواج البنتين ، واستقرارهما في بيتي الزوجية .

تنحنح وارتعش صوته وهو يستعجلها : قولي يا زكية . لماذا سكت ؟

مرة أخرى رأى الحمالة تنزلق من على كتفيها ، وبان منبت النهدين فأغمض عينيه ، وهو يواصل كتابته بخط النسخ.شعر بأنفاسها تتهدج ، وهي تمسك يده وتقربها من شفتيها : أعرف أنك صرت مثلي وحيدا، ودمعتك قريبة.لا يعرف السبب الذي جعله يفز من جلسته ، فيسدل الستائر ، ثم يعود فيحتضن يديها ، واضعا رأسه على كتفها ، باكيا كالأطفال؟!

مسمار جحا

تنغص عليه حياته فكرة أن تستولي مطلقته على الشقة بعد أن دفع فيها دم قلبه ، وبعد حكم المحكمة باستيلائها على العين محل النزاع لكونها حاضنة لطفلين رأى أن يستخدم حيلة بسيطة، لعل وعسى .

الشقة في الدور الثالث ، يصل إليها الشخص بسلم له درابزين خشبي رفيع، لا أثر للنور إذ أن كل شقة تضيء فقط للصاعد أو الهابط من طرفها ثم تعود الظلمة التامة.

مكتبته الضخمة في غرفة نومهما المشتركة كانت " مسمار جحا" ، ومن باب العشرة القديمة والذوق اتفقا على نقلها رغم ضخامتها إلى الصالة على أن يأتي في ساعة معلومة كل جمعة ليأخذ منها ما يريد بلا كلام ، وبالمرة يتمكن من رؤية الطفلين داخل البيت لا خارجه.

هكذا استمر الاتفاق الشفاهي دون خرق للقواعد المتفق عليها حتى كان يوم جمعة إذ دق الباب فلم يجب أحد . دق ثانية وثالثة وعاشرة فلم يظفر سوى بصدى الدقات. لعب الفأر في عبه ، وخاف على الطفلين من السوء عندها أخرج مفتاحه القديم من جيب بنطاله . أدخله في ثقب الباب فانفتح ثم اندفع إلى الحجرة التي يعرفها تمام المعرفة . وجدها نائمة ، والطفلين عن يمين وشمال . رأى شيئا من فتنتها التي طمرتها الألفة . عارية الساقين وجدها. مد يده وغطاها. قبل أن ينصرف فتحت عينيها مستغربة . فوجئت به .

قبل أن تصرخ فيه مستنكرة تراجع خطوتين واقسم بأيمان المسلمين أنه كان ينوي إحضار كتاب من الصالة ، وأنها لم

تستجب لطرقاته المتوالية . هزت رأسها بمعنى أنها تـصدقه ، لحظتها تقدم خطوة ، وجثا علـى ركبتيـه فقبـل الولـدين النائمين .

يبدو أنه نسى نفسه فقد أتبع ذلك بأن أمسك يدها وقبلها ، وهي المحرمة عليه شرعا بعد الطلاق.

سحبت يدها برفق ، واعتذر لها أنه لم يقصد . سألته بعينيها إن كان ممكنا أن يعيد المياه لمجاريها . هز رأسه أن كل شـيء قابل للإصلاح .

في تلك الليلة بالذات ، وبعد أن رجع من عند المأذون ناما سويا على نفس السرير بذات الملابس المبهدلـة الـتي كانـا يرتديانها قبل ردها لعصمته . كل ما هناك أنها أخرجت زجاجة عطر " الأفعى " بقنينتها الذهبية وغلافها الزجاجي الشفاف ؛ فرّشت منها ما بدد هواء الغرفة الثقيل ، حينها مالت وحملـت الطفلين النائمين إلى الحجرة المجـاورة ، وأحكمـت فوقهمـا الغطاء.

كتبت هذه النصوص فجر

الأحد ٢٠٠٨/٢/٣



الملموس



أعرفه كمعرفة خطوط كفي . الملمـــوس ، المعـــروف في الأوراق الرسمية بمختار عوض العترة ، سمكـــري ســـيارات ، وخبير شئون "الشكمانات" . أمه قابلة تولد النساء ، غالبا في الليل البهيم ، وهو يسكن مع عائلته في نهاية شـــارع صـــلاح الدين ، بالقرب من المدافن.

شب عن الطوق عصاميا ، جسده كعود الزان ، هـــادىء نوعا ما ، لكن له في شئون النساء الشيء الكثير.

الناس مصيبتها السبت والأحد ، وهذا مـــصيبته في كـــل وقت ؛ لأنه يميل للتشبه بالنساء في الحركات والإيماءات بالرغم من أن عمله يحتاج إلى قدر كبير من الخشونة .

عرف بالملموس منذ واقعة السطوح ، ومنها أنـــه صـــعد ليقش بيض الدجاج فوقع بين يديه أرنب أبيض بياضا ملفتـــا ، وما كاد يحمله حتى استطالت أذناه وارتخت ساقاه الخلفيتـــان حتى لامستا الأرض ، فماكان منه إلا أن أطلق صرخة مدوية ،

وهبط السلم قفزا ، وفي نهايته ، وجدوه مغشيا عليه من شـــدة الفزع .

وقد تكتمت أمه القابلة أمره حتى عرضته علـــى الحكمـــاء ومتخصصي الأعمال السفلية الذين تمكنوا من معرفة الداء فإذا به ملموس فعلا.

حين تأتيه اللمسة يعوج فمه ، ويرقق صوته ، ويغنج ويتأود كالنساء الشقيات ، ويروح يتمطق باللبان الدكر وفـــصوصه ، فإذا ما فاق نسي كل ذلك وانخرط في شغل الورشة كأحـــسن ما يكون .

كان الملموس محنيا على رفرف سيارة يصلحه حين جاءت . جلست دون صوت على كرسي قديم مليء ببقع الـــشحم ، ثم طلبت منه أن يتبعها لأن سيارتها قد توقف محركها.

ترك الورشة في عهدة الصبي وراح معها ، وبخبرته تمكن من إدارة المحرك وعندها شكرته . سألته عن أجره ، فأخبرها وهو يوليها ظهره متوجها لعمله : خدمة بسيطة لا تستحق أجرا.

هرولت ناحيته وطلبت بلهجة آمرة أن يحدد الأجر فمـــال عليها وقبل كتفها خطفا . بهتت المرأة للسرعة التي تمـــت بهـــا

حركته ، ولم تتمالك نفسها إذ قذفته بحقيبتها فأدمت كبسولة حديدية بارزة رأسه حينها شعرت بالأسف لما أقدمت عليه.

ماتت من الضحك وهي تراه في ورشته يضع قطعة قطـــن مغموسة في المطهر وهو يغني : " حبيبي ســـلامتك .. ســـلامة ابتسامتك " . مضت وهي تسحب معها كل الـــدفء الـــذي أتت به.

بعد أسبوعين دوت الزغاريد في الحارة ، كانت له وهو لها ، وأكثر من ذلك غنى مطرب شعبي معروف يظهر في التلفزيون في فرحه السعيد ، وجمع " نقطة " تقدر بمئات الجنيهات.

طلبت منه أن يخشن صوته وهو ينادي على أصحابه ، وقد حاول جاهدا أن ينفذ طلبها البسيط هذا، لكنها حين تختفـــي يخرج قطعة اللبان من جيبه ، ويظل يلوكها في متعة لا مثيل لها، معيدا سيرته الأولى .

في ليلة الدخلة اكتشفت أنه يضع على جسمه طاقما داخليا باللون البمبي ، وكان رقيقا معها إذ اكتفـــى في تلـــك الليلـــة التاريخية أن يلتهم نصف دجاجته قبل أن يـــأوي إلى الفـــراش مؤجلا ما لابد عمله للأيام التالية لأن الدنيا لن تطير.

لم ينصلح أمره إذ كان يقهقه كلما رآهـا تتخفـف مـن ملابسها ، وتبدو في قمة فتنتها . كان يشير بيده أن تأتي كـي تنام إلى جواره فهو يخشى الوحدة ، ثم يبدأ فاصلا من قبلاتـه المحمومة التي تنتهي بنعاس طويل ، قرير البال ، وهل الزواج إلا انسجام بين روحين ؟

كان رد فعلها أن تحملت ظروفه معللة الأمر بأن هناك مـن الرجال من هو خام ، تسكنه البراءة ، ويحتاج فقط لوقت كي يكتشف طبيعة الحياة وأسرارها التي لا تقال في العلن .

مع تكرار الزيارة للأطباء ومتخصصي العكوسات أقترحت عليه أن يذهب للقاهرة عند أكبر معالج نفسي ، وقـد مـدت يدها إليه بالعنوان ، فأخذها في صدره وهو يضحك بشدة : أنا سعيد هكذا . ماذا ينقصني وأنت معي؟

كان وجهها يتلون وهو يعيد تنضيد هذه العبارة مرة بعـد مرة ، أما الشيء الذي جعلها تخرج عن شعورها فهو الليلة التي وجدته فيها يضع الكحل حول عينيه والبودرة على خديـه ، ويسألها عن مكان إصبع أحمر الشفاه . كان المنظر الذي شرخ صبرها فسخطت على الملموس ، وصفعت خلفها الباب ، ولم تعد بعدها أبدا!

٢٠٠٨/٢/٣

فتاة ليلية



خفت حركة المرور ، وكادت السيارات أن تتلاشى في نهر الشارع . وقف ليتفقد بضاعته التي سيقوم بعرضها غدا في الواجهة الزجاجية.

قبل أن يسحب الجرار الصاج شعر بصوت ارتطام قوي تناثرت على أثره شظايا اللوح الزجاجي .

تلفت حوله في حيرة ، وصوب نظرة عدائية هنا وهناك ، فلم يجد أحدا في مواجهته . رجح أن يكون سرطان الزجاج الذي يتسلل خفية داخل ذرات اللوح نفسه هو الفاعل.

قبل أن يفتح فمه ليسب حظه العاثر وجدها أمامه . فتاة رائعة الجمال في ثوب من الحرير الأزرق ، تسأله أن يبيعها لفة شاش وزجاجة " ميكروكروم" . هز رأسه آسفا ، وسألها أن تمهله دقيقتين ليغلق المحل كي يدلها على أقرب صيدلية.

سارت مطأطأة الرأس ، ومعهما سار عطرها الفواح ، الهادئ ، الرقيق.

لم يكن قد رآها قبل هذا اليوم فخمن أنها من منطقة أخرى . بعد أن سألت صاحب الصيدلية عما تريد مدت يدها أعلى الفترينة ، ومنحته الفرصة ليضمد لها جرحا صغيرا بإصبعها البنصر.

لم يسألها عن سبب الجرح في هذا الوقت المتأخر من الليل . قبل أن تتهيأ للإنصراف ، مالت برأسها وأسرت له بحقيقة الذي يحدث لها. حين تحزن يصبح من المحتمل جدا أن ينشق أقرب لوح زجاج يصادف أن تمر ناحيته. لم يصدقها ، وكان يود أن يطبع قبلة امتنان على خديها الأسيلين لأنه شعر في رحلته القصيرة معها إلى الصيدلية أنها فتاة لا تعوض . صوتها الذي يشبه الموسيقى ، والتفاتاتها الرشيقة ، وبسمتها التي تأخذ من النسمة لطفها .

في صباح اليوم التالي اكتشف أن لوح الزجاج متماسك ولا يوجد به خدش واحد أما زجاجة الميكروكروم فكانت منزوعة السدادة ، وكيس القطن مفتوح من الزاوية اليسرى كما تركه في الليلة الماضية.

٢٠٠٨/٢/٣



قرصان



قراصنة العصور الوسطى غالبا يبحرون على سفن شـــراعية عملاقة . يسطون على سفن الركـــاب في عـــرض البحـــر ، فيغنمون الذهب والمال والنساء .

شريف شاب عصري من مدينة بورسعيد . بحار يبدأ السلم من أوله ، وتداعبه آمال جسام أن يصبح يوما قبطانا ناجحا .

في إحدى جولاته في البحر المتوسط حطت سفينته علـــى شاطيء جزيرة " كريت" . هبط إلى البر كي يشرب قـــدحين من البيرة المثلجة التي يحبها ، فهي تجدد له حيويته.

في مروره السريع من أمام إحدى الكبائن لمح قرصانا يـــضع عصابة سوداء على عينه . كوة صغيرة مررت المشهد المفـــزع حين كان يربط امرأة في قمة الجمال وسط سرير حديـــدي . رجع خطوتين واختلس النظر فتأكد هذه المرة أنـــه يهـــددها

بسكين لامع النصل في يده لو أنها صـــرخت أو اســـتغاثت ثم أحكم وضع قطعة القماش على فمها المرتعش .

صرخ الدم في شرايين البحار الشاب ، فاندفع محطما الباب، وألقى بنفسه على القرصان . تمكن من خطف الـــسكين الـــتي بيده ، قربها من عنقه ، وأمره بصوت غليظ لا اهتزاز فيـــه أن يخلد للهدوء وإلا أطاح برقبته المتلفعة بشان أحمر منقوش عليـــه جمجمتان مع تقاطع عظمتين بيضاوتين.

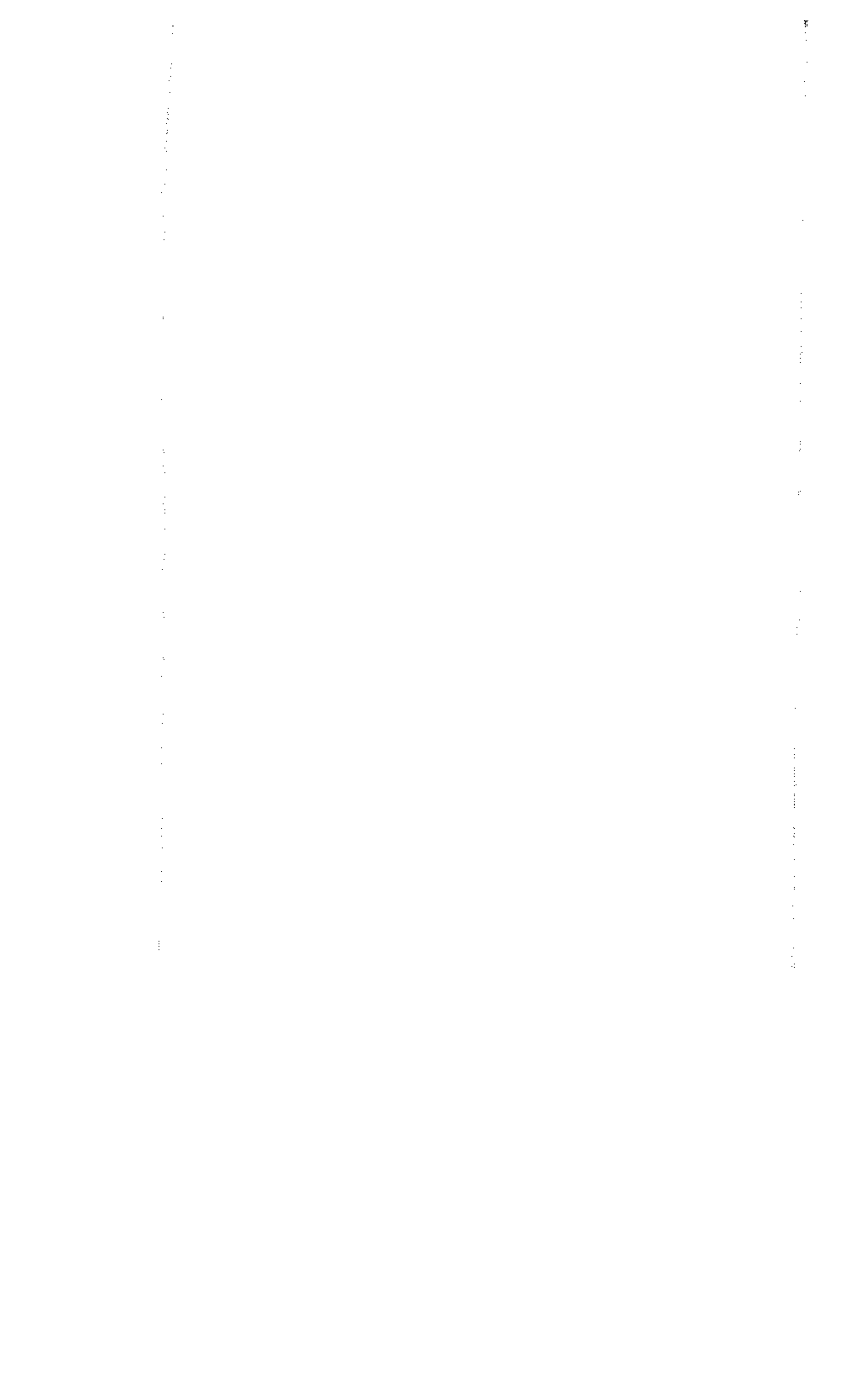
حرر الفتاة الجميلة كفلقة القمر من الحبال الملتفة حولهـــا ، ورفع قطعة القماش من على فمها .

اعتدلت الفتاة مستغربة ، وسوت ملابسها . قالت بيونانية محتدة يعرفها كل المعرفة : من أدخلك هنا أيها المعتوه. أتـــرك زوجي وأذهب لحال سبيلك ، وإلا استدعيت لك الشرطة .

أخذت الرجل القرصان في حضنها ، وقبلتـــه مـــن فمـــه بحرارة، ثم مضت نحو الباب ، وأخرجت البحار الخائب بركلة قوية بقدمها اليسرى في ظهره .

٢٠٠٨/٢/٣

للوم



عثر لملوم وهو يفتش في غرفة الخزين عن شيء يصلح لطعام الغذاء على صندوق صغير بقفل دقيق محكم.

كان الصندوق من النحاس الذي طاله الصدأ فأصابه اخضرار غريب.

أخفى لملوم الصندوق تحت سريره بين أغراضه المبعثرة حالما تأتي الفرصة المناسبة . فلما جن الليل جاء بسكين له طرف مدبب ، وتمكن من فتح القفل . حين رفع الغطاء ، ارتجت الحجرة بصوت كقصف الرعد ، وملأ الدخان المكان . بدا العفريت هائل الجثة ، بشارب كثيف مبرومة أطرافه ، متحفزا لتنفيذ كل أوامر مخلصه : شبيك .. لبيك..

أخذت لملوم رعدة ؛ فهو يعلم أن العفاريت قد مضى زمنها، وآخر عهده بها حكايات مدهشة كانت تحكيها له جدته عنايات التي ماتت منذ عشرين عاما بأسفكسيا الغرق

وهي تغسل ملابسه زوجها الفلاح المستأجر في قريتهم شمـــال الدلتا .

-شبيك لبيك. عبدك بين إيديك!

زرّ لملوم عينيه ، وشوح بيديه ليطرد سحب الدخان ، ووقع في حيرة بالغة ، فهو لا يقدر على مواجهة هذا العفريت الذي يفزعه طوله المخيف وعبوس وجهه المرعب ، وصوته الجهير : أوامرك يا سيدي !

همس لملوم بصوت خفيض ، وكأنه يعتذر له : لا شــيء . ماهيتي تكفيني ، وشقتي موجودة ، والعلاوة الدورية في طريقها إليّ .

غضب جارف زلزل كيان العفريت الذي ضــرب كفــا بكف : لماذا استدعيتني إذن؟

– يا سيدي العفريت الغلط مردود.

– لا طلبات تريدها يا إنسي ؟

– لاشيء سوى سلامتك.

– أأنت متأكد؟

- نعم . كل ما كنت أريده كيلو عـــدس وكيلـــو فـــول ونصف كيلو لحم جاموســـي ، وســـوف أذهـــب الـــسوق لأحضرهذه الأشياء على الحساب.

- لا مانع عندي . أعرف هذا النوع من الإنس الفقري.

- أشكرك .

- ألا توجد طلبات قبل أن تندم.

الدخان الذي كتم أنفاسَ لملوم جعل أمنيتـــه الوحيـــدة أن يتبدد المارد الذي جاء كالقضاء المستعجل وقد أزعجه طولـــه المفرط ولحيته التي تكاد تصل للأرض فتكنـــسها مـــن تـــراب سنوات من الإهمال : طلبي الوحيد أن تدخل الصندوق لأرميك في قاع النهر ، أو تخرج من هنا حالا.

قهقه العفريت ، وطفق يرقص فرحا بحريته التي نالها ثم انحنى ليشتال لملوم ويقبل رأسه امتنانا : هم .. هم .. هم.

قبل أن ينصرف التفت خلفه : أمنحني هذا الإبريق لأشرب.

- يمكنك أن تأخذه معك فقد تعطش .

- أتريد رشوتي يا سيد لملوم.

- أبدا والله. ما قصدت إهانتك ولا رشوتك.

فيما الملوم يرتجف رعبا : أيمكنني يا سيدي أن آخذ الصندوق كذكرى ؟

انحنى الملوم زيادة في التوقير والاحترام : خذ ما تريد ، لكن انصرف بسرعة وحياة رأس أبيك.

دوامات الدخان تزايدت لحظة الانصراف ، واهتزت الجدران فيما راحت قبضة أمه -بنت عنايات -تدق الباب المغلق . حين فتح لها دخلت ، وبيدها فوطة . صاحت بابنها الذي كان يلملم ذرات نفسه المبعثرة : افتح الشبابيك يا الملوم ، الدخان سيخنقك !

٢٠٠٨/٢/٣

السيدة جليلة



حين أحرقت السيدة جليلة نسخة زوجها الـشيخ عثمـان العدل من كتاب " ألف ليلة وليلة " فر العفاريت من النـار ، وتسللوا من بين خصاص النوافذ أو من تحت عقب البـاب إلا عفريتا واحدا أمسك بيمناه السواك ، وراح يحركه بين أسـنانه شديدة البياض ، وهو يقسم بشرف أجداه العظام من ملـوك العفاريت الحمر أنه باق هنا ، ولن يبرح مكانه ؛ فهو لا يعرف له مكانا يبيت فيه ، ولا أقارب يلجأ إليهم حتى يـدبر أمـره سكنا وطعاما ، كما أنه يكره أن يسأل الناس في مذلة ، أعطوه أو منعوه.

جاء بكرسي الحمام الخشبي المبتلة قاعدته ، وجلـس أمـام الحجرة التي كان يتصاعد منها الدخان ، وبجلسته تلك راح يمد ساقيه فيعرقل الرائح والغادي.

الست جليلة كانت مغتاظة من إهمال زوجها حقوقها الزوجية كما أنه يضيع معظم وقته في قراءة صفحات متتالية من ذات الكتاب فصارت على الرف وهو الشيء الذي أوغر صدرها دون أن تحسب أمر العفاريت وبجاحة صغيرهم المتمرد. الست جليلة ماكرة ، وقلبها أقسى من الحجر الصوان . رمقته بغيظ ثم شيعته بنظرة فيها غضب كثير : أأنت الفالح فيهم . ستزهق حالا ؟!أهملته تماما ، ودخلت المطبخ تخرط البصل وتشقق حبات البطاطس فإذا بالأطباق تتحرك على حواملها ، وإذا بغطاء الحلة النحاسي يطس الحائط قبل أن يتهادي على البلاط محدثا ضجة مرهقة للأعصاب ، وسرعان ما تحركت يد الهون ومضت تدق دقات تنخلع لها القلوب دون وجود ما يستدعي الدق من فلفل أو كمون أو كسبرة .

أزاحت بقدميها الأوراق المتفحمة من الكتاب المحروق ، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، وقالت في سرها : لحظات ويمضي إلى حال سبيله لكنه كان صعيدي الرأس في عناده حيث لم يتحرك من مكانه فقد رأته جاثم في مكانه فيما عيناه تتحركان في محجريهما.

بعد تفكير ممض رأت أنها ليس لها في شئون مخاصمة العفاريت ، فمالت عليه تقبل رأسه ، وتعتذر له عما بدر منها

من سوء تصرف ، وماكان من أمر إحراق نسخة الكتاب النفيس .رفع يده معترضا : والله لن أقوم من مكاني قبل أن تصلحي غلطتك ، فأنا لا أعرف لي مكانا غير صفحات " ألف ليلة وليلة " فأنا عفريت غيراجتماعي بطبعي ووقت فراغي أقضيه في النوم اللذيذ .حاولت أن تحايله ، وتلاعبه بالكلام لكنه ظل مصمما على رأيه ثم باغتها بأن راح يغمز لها بعينيه في نوبة غزل غير بريء كما رأته يمشط لحيته بأصابعه المفرودة وهو يدندن بطقطوقة سمعتها مرة من جرامفون يذيع أغاني وأدوار سيد درويش . كادت تطق غيظا من جلسته التي لا تتغير إلا كلما شعر بالمغص فتزوم بطنه ، ويخرج ضرطة عظيمة تهتز لها جدران الشقة القديمة في الدور الخامس .ذهبت السيدة جليلة إلى مكتبة عتيقة بحي الأزهر ، ودفعت كل ما ادخرته لزوم المصيف في حي الأنفوشي بالأسكندرية كما تفعل كل عام ، وعادت بنسخة مذهبة الغلاف من الكتاب.لوحت له بيدها ، وهي تمرق فوق العتبة متجاوزة ساقيه بصعوبة ، وحين رآها لم يكلف خاطره ليسحب الساقين تأدبا . لقد استمرأ الجلوس في نفس المكان ، ولم تحاول إثارة غضبه حتى لا يفسد خطتها في مصالحته : أين ذهبت؟بلعت توترها : ستعرف الآن . تفضل . لم يعد لديك حجة . غادر البيت ، وريحنا.

طلب فنجال قهوة سادة محوجة بالحبهان ، وقام لهنيهة من جلسته ثم سرعان ما عاد ليرسخ كالجبل على كرسي الحمـــام الذي كان قد اسود من فعل خروج الريح بأصـــوات بعـــضها مدوية وبعضها الآخر مكتومة : لحظة واحدة . أعدل عمامتي .

سمرت نظراتها في الحائط ، وهي تلمحه يسوي ملابـــسه ، ويمشط لحيته الكثيفة التي كانت سوداء لأقـــصى حـــد دليـــل الشباب .

حاصرته باحتجاج مكتوم: هل ستبقى أطول من ذلك؟

قهقه العفريت وبانت سخريته : خلق الإنسان عجولا.

فوتت عليه الفرصة : أبدا . البيت بيتك!

ضحك بصوت عال وهو يتصفح الكتاب بورقـــه شـــديد الاصفرار ثم مرق داخله.

بكل عناية واحترام تناولت الكتاب مـــن علـــى منـــضدة السفرة، ودسته في مكانه بين الأرفف .

تنفست بارتياح ، وهي ترى كرسي الحمام الخشبي وقـــد عاد شاغرا لتجلس عليه وحدها بلا رقيب أو حسيب.

٢٠٠٨/٢/٣

هدهدة



هدهدة ، أي فعللة . لا أحد يجرؤ على فتح فمه ، ليقـول للشيخ يسري البساطي ثلث الثلاثة . كم ؟

هو يضع العمامة على رأسه ، ويقلوظها ، ولا يرضـى أن يخلعها حتى لا يبان عاري الرأس .

في دروس النحو يتفنن في شرح القواعد اللغوية الـصعبة ، مخترقا هالة السكون التي يكون عليها الفصل . يتحـرك مـن اليمين إلى اليسار أمام سبورة سوداء من الحائط إلى الحـائط . تقع الأبرة على البلاط فترن .

كأي جمل أصيل ، نخ من المرض فليس له كبير ، وأخـرج منديله فمسح رذاذا ملطخا بدم أحمر انخلع له فؤاده.

هدهدة على وزن فعللة ، وبيده الميزان الصرفي ، وفي قلبـه ميزان العدل لا يختل بمقدار خردلة ، وأسبوع مبارك حين يقسم على زوجاته الثلاث أيامه الظليلة . فمن حـق كـل واحـدة

يومين، ثم يستريح في اليوم السابع أي الجمعة . معه يحضر لفة فسيخ ، وربطة الأرغفة اللدنة ، وأعواد البصل الأخضر والكرات . يشمر أكمام القفطان الواسعة ، وباسم الله الرحمن الرحيم يبدأ في ازدراد أول لقمة .

من صباح ربنا يأخذ طريقه إلى المعهد الأزهري ويعود بعد العصر لبيته ، فتغرف له صاحبة النصيب كل ما تشتهي الأنفس من خيره . ساعتان لا أكثر للقيلولة ، بعدها ينفض بدنه ، ويتوضأ للمغرب ، وسرعان ما ينطلق بحقيبته ، ودفاتره المباركة ليعقد قران أولاد الحلال على ربات الصون والعفاف من البنات صاحبات الخدور . يعود بالحقيبة السوداء ملأى بالشيكولاتة والملبس ، فتفرز الزوجات ما بها في علب مخصوصة ، وعند اكتمال الوزن المتفق عليه يذهب للحلواني ، وبثلثي الثمن يبيع ولا من شاف ولا من دري .

السمن البلدي مع عرق التحويجة والحبة السوداء لشد الظهر والإبانة عن الفحولة التي تتسرب على شكل أصوات مبحوحة، لاهثة ، متقطعة من تحت عقب الباب عندما ينفرد بزوجة من زوجاته الثلاث ، القانعات ، الراضيات .

سأله صديقه المعلم يعقوب أستاذ الكيمياء عن سبب اكتفائه بالثلاث ، ولماذا لا يجعلهن أربعة ؟

لم يهتز له جفن حين سمع السؤال ، وكأنه قد رتب إجابته عليه منذ سنوات . على قد الحجرات جاء النصيب ، والصالة لا تستر عدوا ولا حبيبا. يسألونك عن الأولاد قل هم قرة أعين . هذا ما يعرفه الشيخ البساطي ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة . ليس له في مسألة الإنجاب . هو لا يعرف سببا لجفاف الأرحام ، وانقباضها حيث لا تطرح أولادا ولا بناتا من لحمه ودمه.حين جاء قانون الخلع كان ممن انخلع قلوبهم خشية أن يؤثر ذلك على دخله المضمون فهو لا يعرف بعد سوى الزواج والطلاق وهي الطرق المعروفة والمألوفة في علاقة الرجال بالنساء من قديم الأزل ، وقبل أن تدس الحكومة أنفها فيما لا يعنيها. راقب ودقق واختلس السمع واسترق البصر على القضايا المرفوعة في المحاكم ووجد أن الحال معدن ، وأن عمله لن يتأثر كثيرا بهذه البدع المذمومة. هدهدة على وزن فعللة ، وكثيرا ما تأخذه سنة من النوم ، فيتراءى له وجه ولد يشبهه تماما بملابس بيضاء هفهافة ، يقبل عليه ، فيداعبه ، ويركب على ظهره المقوس . يسير به في الصالة المستطيلة ، فيضحك الولد ويثير فرحا لا ينتهي . مرة يخرج من حجرة فريدة ، ومرة من حجرة محاسن يخرج ، وثالثة من حجرة وجنات . كلما قلد صوت الخروف هزّ الطفل ساقيه الرفيعتين ، وانبطح على ظهر أبيه ثم مد يديه وشد أذنيه ، وصاح به أن : حا.. حا..

فيضطرب لحظة فقد أصبحت الركوبة حميري ، وهذا ما يقلقه ، فيشخط في الولد قليل التربية ، ويصحو من نومه ضجرا. يجد نفسه وحيدا إلا من جسد إحدى حريمه داخل ثوبها الكستور شتاء والللينوه صيفا، ليعرف أن في ذلك حكمة لو يعلم أولو الألباب.حين فكر في سلوى الممرضة بمستشفى الأعصر كان مقصده حلالا ، فهي المطلقة ، الولود ، خضراء البطن تصلح له تماما. وقد صمم أن يتزوجها على سنة الله ورسوله . يمنحها اليوم السابع غير أن عاصفة الصحراء الجرداء هبت على حياته فأحالتها مرارا ، وكدرت أيامه التي اتسمت دائما بالهدوء . بالورقة والقلم عرف أنه الخاسر لكنه لم يستسلم للضغوط التي مورست عليه ، وبكل ما يملك من قوة وبأس عقد عليها ، ودخل القفص الذهبي للمرة الرابعة بقدميه ، وجعل سكنه عشة بحري في الطابق الثاني بمصيف رأس البر حيث الفراندة تطل على جامع الرحمة .

البطن انتفخت ، والزوجة تتوحم ، وهو يأتي لها بالمشمش والخوخ والبرقوق ماركة هوليود بل بعض ثمار الأناناس من مهربي بورسعيد وصبيانهم .

يوم الجمعة لها وحدها ، ولها الدلال ، وقد بلغ به الجنون أن كان يريحها فيطبخ هو خوفا على النطفة من نار البوتجاز .

هدهدة ، أي فعللة ، فيها رقة وإيقاع جميل يقترن بالأطفال إذ يحتضنهم الأهل ، ويلاعبونهم . الأب يناغي ابنه ، ويسمع حروفه الأولى تتكسر على شفتيه ، ولثغ الكلمات التي تتشكل ببراءة ورفعة: ب..ا..ب..ا..

يقبل عليها فيتحسس البطن ، ويضع الأذن ليستمع إلى حركات موجية لا تكاد تحس. يغالب النسوة قهرهن ، ويقابلنه بود مصطنع في انتظار القادم : ولدا كان أم بنتا . هو حريص ألا يهتز ميزان عدله ، فلكل واحدة يومان كما جرى العرف ، ولها يوم واحد فهي المغلوبة على أمرها نظريا لكن بصورة عملية أمكنه أن يستخرج من اليوم يومان حين يمد حبل الدلال بوصل الليل بقطعة ثمينة من الليل. وهو لا يخفي بهجته مع اقتراب موعد الوضع.في نهاية الشهر التاسع فاجأها المخاض وهي تهبط من سطح البيت بعد نشر الجبة والقفطان والعمامة . جاءت القابلة ، ومعها مساعدتها ، وبعد الصرخات المعتادة وأكواب القرفة جاء الولد.

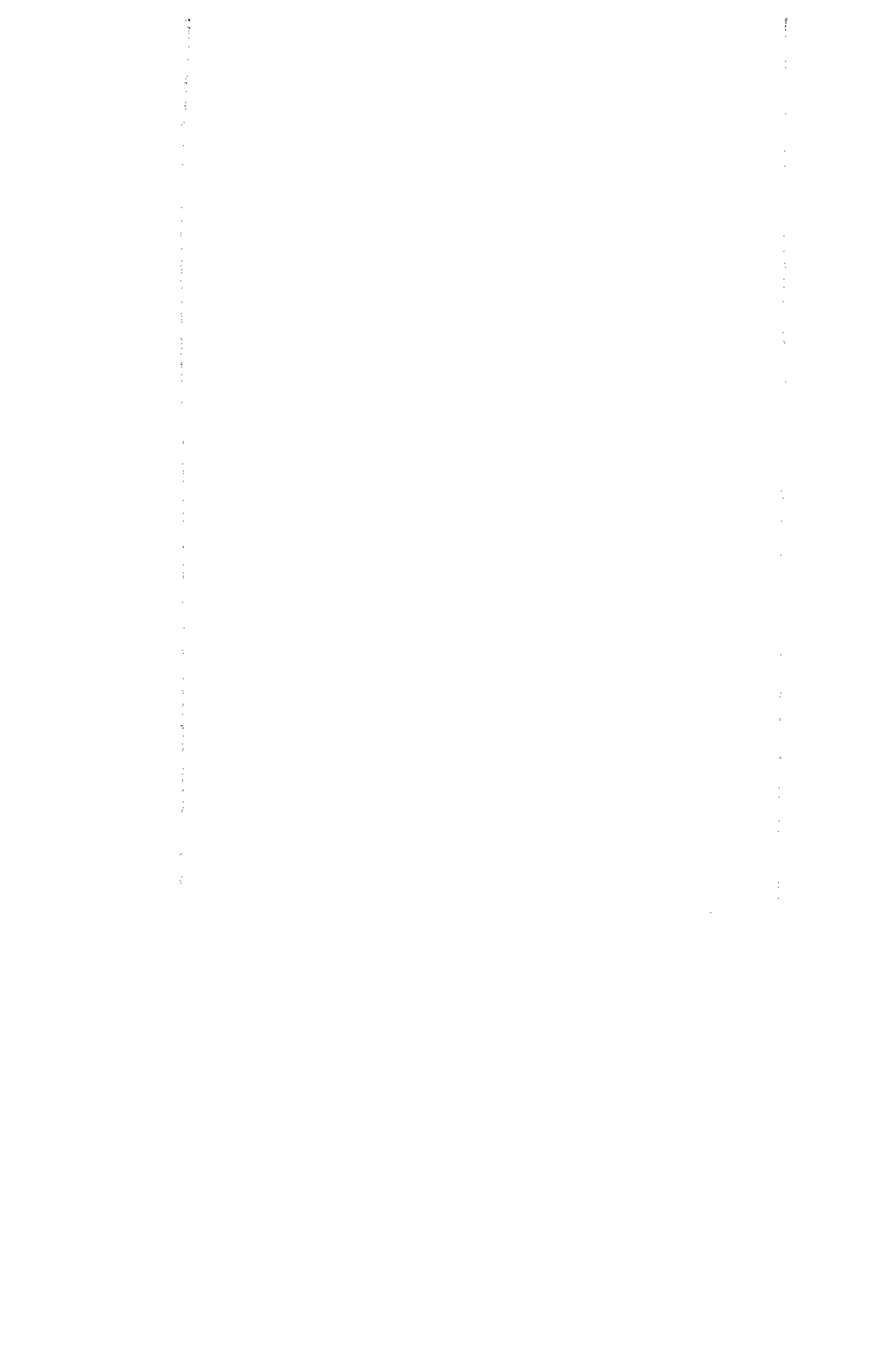
كان ميتا ، وتميل بشرته للزرقة . حمله في هم عظيم ، وراح يهدهده ، باكيا ، مولولا ، وما لبثت القابلة أن اختطفته من بين يديه خوفا من أن يجن . لفته بقطعة قماش بيضاء وذهبت به إلى المدافن .

بقى الشيخ في بيت الوالدة أسبوعا بأكمله ، حتى عـــاد إلى رشده ، ومضى سيرته الأولى . دون أن يغمطها حقهـــا مـــن حيث النفقة والمواساة والزيارة الواجبة للأم المنكوبـــة ، والـــتي شاركته عن حق وجعه الذي لا ينسى . مضى ينتظر أمر ربنا ، وإنا معه لمنتظرون.

٢٠٠٨/٢/٣



الدلدول



لم يكن ينغص عليه حياته إلا ما استشفه من نظرات الناس له ، وهو يمشي في ركابها ، متقدما عليها بخطوتين حتى يفسح لها الطريق كي تجلس على مكتبها البيضاوي الكبير الذي يوشك أن يبتلع نصف الحجرة .

في بنصرها خاتم فصه من الماس الأصلي يبرق إذا ما انعكست عليه أشعة الشمس فإذا به يعطي كل الألوان التي يمكن أن يتخيلها كجربوع صغير من سلالة الجرابيع .

تشوح لكل من يدخل إليها بورقة ، فتزفر بصوت مسموع، لكنه هادىء وخجول : أف .. أف..

و" أف " هذه تبدأ من الشغل ، وتسير في الشوارع والميادين لتتبعها هي ذاتها كلما خلت بنفسها ، وصارت في بيت المرحوم " أبو بلبل" .

هو ابن عز ، زوجها ، وارث العزب والأطيان ، وعمارات ثلاثة في شاطيء جليم . بعد أن غدرت به الدنيا ، وأماتته في

يوم شتائي مشمس وجدت نفسها في ثوب أسود ، وحول عينيها كحل أسود ، ويؤطر صورته القديمة وهو في صدر شبابه شريط من الستان الأسود ، فسبحان الله خالق الألوان وموزعها بحساب دقيق ، وسبحان الحي القيوم الذي لا ينام.

لم يكن يتصور أن تكون من نصيبه ، فخياله لم يحلق إلى تلك المسافة البعيدة جدا ، لكنها أقدار وأرزاق قسمها المولى تعالى ؛ فبتتابع المهام والخدمات والتشهيلات وجدت أن عوض شحاته المندوه فيه كل صفات الكلب الأمين . فكان كلبها ، وبدلا من أن يسير في ظلها فضلت أن يسبقها بخطوتين لا ينقص منهما ربع بوصة ، ولا يزيد.

الموظفون الأقدم حسدوه ، والسعاة تقربوا منه زلفى ، وقد كان موفقا كل التوفيق حين لم يغير أطقم ملابسه الكالحة ، واكتفى بتلميع الحذاء ، ودهن الشعر بالفازلين مع تعليق ابتسامة غامضة على شفتيه المتورمتين كلما أغلق الباب خلفه ، وهو يحضر لها " البوستة " ثم وهو يعود بها ممهورة بتوقيعها الكريم ، وبالأختام المستديرة المخصوصة.

على فراش الزوجية أرته أعاجيب لم تكن تخطر بباله ، فتيقن أنه إن كانت للمرأة سبعة أرواح فلها أربع وعشرون وجها كل منها مختلف تمام الاختلاف عن غيره .

لهجته الفلاحي لم تقف حجر عثرة أمام تواصـله معهـا ، فليس باللغة وحدها يحيا الإنسان ؛ لذلك عندما وصلها خبر أن شقيقه شفيق قد مات في العراق بعد أن شقت شظية عمياء من مدافع الحلفاء صدره بينما يسير في شارع السعدون ، ذهبـت إلى بيت العائلة القابع في الدور الأرضي بعزبـة الكاشـف ، وقدمت واجب العزاء ثم شربت القهوة السادة وكانـت مـرة مرارة لم تذقها من قبل . قدمها لها بنفسه ، وشكرها أن شرفت العزبة كلها بخطوتها العزيزة ، وبينما يريها صوره مـع شـفيق حافيان في أول التحاقهما بالمدرسة الابتدائية سالت على خـده دمعتان فمالت ومسحتهما بطرف منديلها المطرز . تأكدت أنه فلاح من أصلاب فلاحين ، رضع البساطة والمكر ذائبـان في حليب الأم . الدهاء الذي تحبه فيه تركته على ملامحه ولم تسع لتغييره فقد تحتاجه في مرة . دهاء مذ كان طفلا لا يعـي مـا حوله حتى صار شابا مرموقا يضع ساعة " رادو " في معـصمه بتمغتها الأصلية . جرى الاتفاق ببساطة على أن تكون هـي السيدة الأولى ، ويكون لها ستر وغطاء ، وإن وجـدت فيـه الحائط الذي له ظل قد ينفع في الملمات .بينه وبينـها عـشر سنوات . هي الأكبر ، تفوقه علما وجمالا وأناقـة ، وحـين وازنت الأمور وجدته يزيدها شبابا وطموحا ومكرا.

فحقت عليه لعنة الزواج . قالت : أجرب حظي مع هـذا الشاب الذي لا يعيبه أنه فقير ، مقطوع من شجرة حيـث أن شقيقه شفيق الذي قضي في العراق كان آخر أقاربـه الـذين

فارقوا الدنيا ، وعنه ورث حوالة قيمتها ألف دولار وصلته بعد غزو جيوش الحلفاء بغداد ، وشنقهم لرئيسها الذي اختفى في حفرة ، ونحروه عشية عيد الأضحى.

صورة الخروف كانت مواجهة لمكتبها ، وأمامه تمتد مراعٍ خضراء وشجرة زينون مورقة ، ونهر سلسبيل يترقرق بالزرقة ، وسرب نوارس يحلق بأجنحة بيضاء من غير سوء ، كلما دخل عليها المكتب سمر نظرته على الخروف فسمع مأمأته تأتيه هو بالذات.

من غير المعقول أن تظهر كل مواجعه في الأسبوع الأول للزواج على أنها حجزت تذكرتين للغردقة ، وأرته صنوف الغرام والنوم بأوضاع بعضها غريب وأقلها مألوف خاصة أن السرير كان من النوع الذي يدور يمنة ويسارا بمحور في المنتصف تماما . كاد يجن وعرف أن للذة أشكالا وألوانا ، وسبحان الله مقلب الأفئدة ؛ إذ أنها وجدت في بعلها ما يشبع نوازع الجسد ، وهفوات النفس ، فغمرته بعطفها كما منعت عنه شرها ، وأدركت أن الحل العبقري لبقاء الحال على ما هو عليه أن تظل المسافة الآمنة خطوتين باستمرار ، ثم لتمض الأمور كسابق عهدها .

هي الحاكمة الآمرة ، وهو العبد المطيع الذي يعرف حدوده ، ويشوف من بعيد كم منّ الله عليه من فضله إذ أصبح أمام

الجميع زوج المديرة ، ولكنه والحق يقال ليس تاج رأسها بأي حال من الأحوال.

كالبندول صار يروح ويجيء في خدمتها ، وهي وسعت عليه بمنحه علاوتين استثنائيتين ، ولكن القلب نفسه لم تمسسه بعد تلك الشرارة المقدسة التي تسمى الحب ، فكان زواجا غريبا ، لا هو لرفع المقام ، ولا لإصلاح الحال. هو زواج أقرب ما يكون لسد الذرائع لا أكثر.

ومن غريب ما يروى في شأن هذه الزيجة أن الحاقدين وهم كثر أسموه " الدلدول" ، وكانوا ينفثون عليه نجاحه في الظفر بتلك الأنثى الرائعة ، والتي تنافس عليها من هم أكثر منه نفوذا ومالا ووسامة ، لكنها بذكائها اختارت الطرف الأدنى لتكون لها السطوة ، والسيطرة في شئون القيادة بكل أنواعها.

قلنا أن للسيدة ولد وحيد من زوجها المرحوم ، وان هذا الولد المدلل اسمه بلبل . له مربية شابة ، آنسة ، رقيقة ، مؤدبة ، وبنت أصول اسمها فاتن .

هذه هي معلوماتنا كاملة لأن الدلدول أخفى على أهل العزبة أن المرأة التي دخل عليها سبق لها الزواج والحمل والرضاعة ، وهل يعيب المرأة أن تكون مرغوبة ، وولود؟!

سمن على عسل علاقة السيدة بموظفها الذي حاز رتبة البعل عن جدارة ، ولو سئلت في أي مناسبة : هل يستحقك عوض

شحاتة المندوه لردت بملأ الفم : نعم ، يستحقني وأكثر ، فهو يحافظ عليّ بعينيه ، وابني هو ولده ، وهذه من صفات أصحاب الأخلاق الحميدة ، ولن يراجعها مخلوق في رأيها فهي الأدرى بأمور بيتها.

كل هذا صحيح ، ومعروف ومؤكد حتى وقعت الواقعة إذ تعرض السيد عوض لمغص كلوي حاد استوجب عليه البقاء في البيت للراحة وتناول المضادات الحيوية .

عادت السيدة من عملها في غير ميعادها المعلوم ، أدارت مفتاحها في ثقب الباب ودخلت حجرتها ورأت وليتها ما رأت.

كان السيد عوض عاري الجسد إلا من سروال قصير ، والبنت المربية ، والتي تندب في عينها رصاصة تدلكه بيديها الناعمتين ، وهو يتقلب على جمر النار ، ويئن أنين من يشوى على فحم جهنم.

صرخت وولولت ، وبكل ما تملك من ضبط النفس صرخت فيه : أنت طالق.

كانت العصمة بيدها ولها القرار وحق التوقيع منفردة . لم يطلع الصبح حتى كان عوض قد ستّف ملابسه في حقيبتين كبيرتين تاركا ملابسه الداخلية إذ كانت مليئة

بالخروق ، والله أمر بالستر . غادر البيت ، وانقطع تماما عن الذهاب للمؤسسة.

افتقد الموظفون الدلدول ، وقال أغلبهم أن حظه عاثر لتركه المديرة ، وأنه قد رفس النعمة بقدميه . لكن صاحب العملة كان له رأي آخر ، فقد فرح بخلاصه ، وراح ، وخطب البنت المدبرة بعد الضبطية بيومين، ومضى في إجراءات بناء عش الزوجية بجدية .

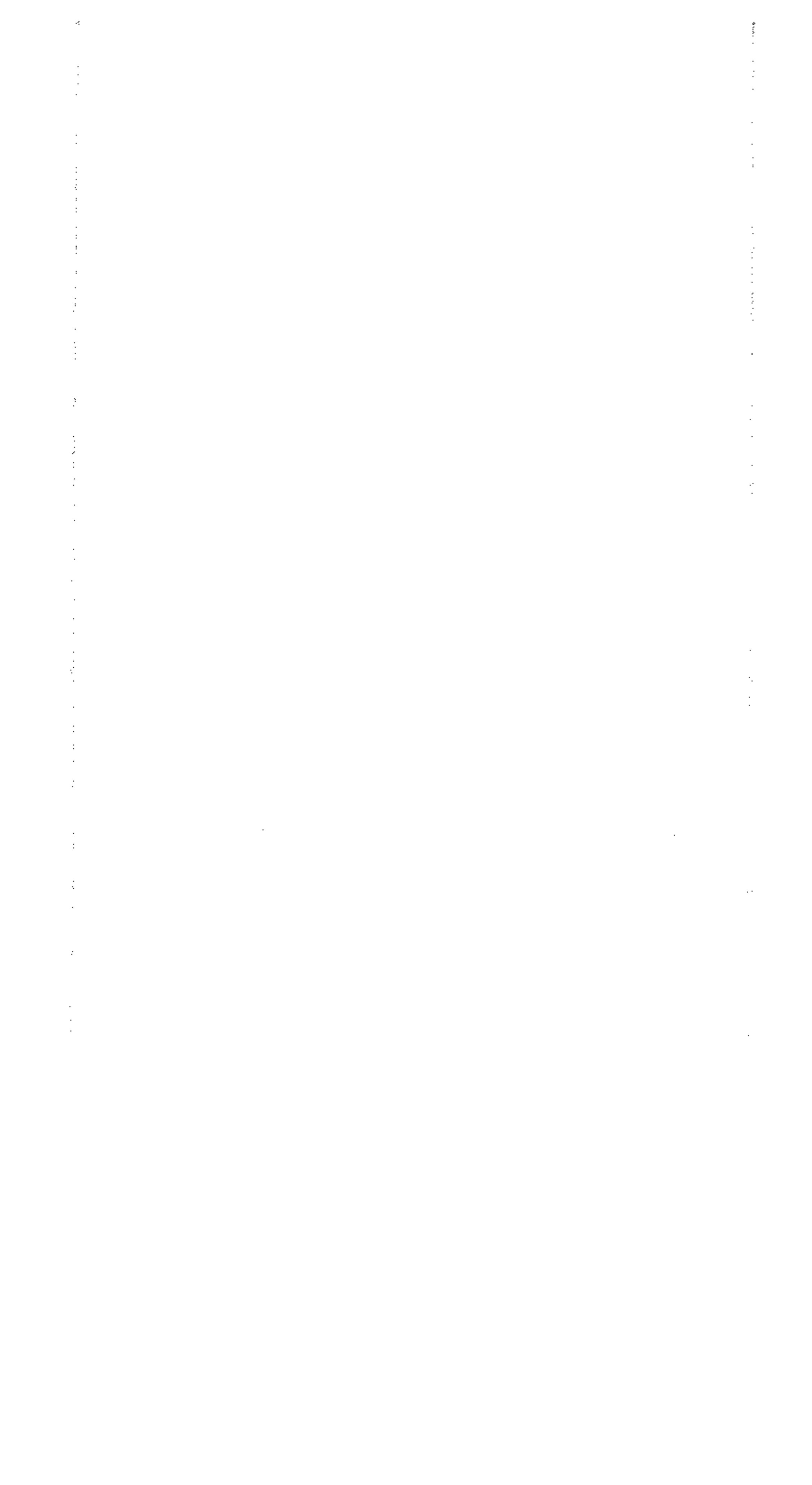
لم يكن يؤرقه سوى اللوحة التي كان قد اشتراها وأهداها للسيدة المديرة قبل أن يقترن بها .

كان يريد أن يعرف لماذا تتهادى إلى أذنيه حتى بعد أن راح كل إلى حال سبيله تلك المأمأة الغامضة المتقطعة للخروف الشارد ؟!

٢٠٠٨/٢/٤



أسود .. أبيض



(١)

أن تسير تحت الأفريز ، بمحاذاة الخط الفاصل بين الظل والنور . أن تحدق في البنات السائرات في نهر الشارع بعينين كسولتين . أن تخفي ما حك صدرك من هلاوس وظنون . أن تكتم سعال صدرك المسلول متعاليا فوق الآلام التي توشك أن تمزق رئتيك . ترفع كفك اليمنى لتمسح خيط العرق المالح الذي يتزلق تحت عدسة نظارتك الطبية السميكة .

ذلك معناه أنك في الوضع الآمن . فما الحياة إلا مهزلة ، وما كتاباتك بالقلم الرصاص الرفيع إلا بوح لن يراه غيرك.

(٢)

تلك حقبتك ، وأنت الواحد المجنون بهذيانك المرير . هل قد قلبها من حجر صوان أم أنها حين بك وشت لخصمك كانت

تتقي غدرك المتوقع ، تود أن تحطم خصومك ، ولا تمتلك سلطانا ولا نفوذا.

هل جاءت نوبة البطش أم أنها انبثاقات متفجرة صغيرة تخلصك من انشطار ذاتك المعذبة بين الضمير المتيقظ وبين عقلك الذي ذهب ، وأنت أسير ذهبك ومرجانك وأحجارك الكريمة التي غطتك حتى الذقن ، فبانت حركتك مقيدة : يداك مغلولتان ، فبصرك اليوم حديد .

(٣)

من دواعي هزيمتك أنها بطشت بك فيما كنت تعيش أيامك تحت شمس الخليج ، تجمع المال ، وترسله حوالات بريدية ، والورق الأخضر يروح إليها ، وما تفتأ تحدق في البؤبؤ ، ممعنة النظر لوجه الرجل المتجهم بشعره المستعار ، المصفوف في عناية في بلاد بعيدة.

أنت بعيد ، وهي قريبة بل لصيقة القلب . تكفيك منها مكالمة ما بعد الساعة الحادية عشرة مساء . تسقط الريالات الفضية في الآلة ، وتستمع إلى لهاثها آتيا من أعماق الأرض ، تستزيدها أن تتكلم . لم تكن تعرف أيها المغدور أن اللغة خدعة ، وأنك لست المخدوع الأول ولن تكون الأخير طالما الأنثى غزالة اسكندراني . تلهو في مراعي خارج مضارب القبيلة.

(٤)

للبيت رب يحميه ، وللسيدة ناظلة عشيق يغريهـا بـالعين والحاجب . عرفت أنها لم تمسس مالـك ، ومـا فرطـت في جسدها ، لكنها منحت الروح راضية مرضية لهذا الـشخص الضخم ذي الصوت المختنق ، الذي حول لها البحر طحينـة ، وأغراها بمعسول الكلام أن اليوم خمر وغدا أمر .

وبالضاد ضعضع سكينة فؤادك . اخترق غرفة نومك دون أن يدخلها ، وأمسك خصلة شعرها وألصقها بصدغه . لقـد شق الجدار ، ورقق القلب البريء ، وما لبث أن حطم أحلامك فصرت أضحوكة كل حي يسكن ذلك الحي الذي حرمته على نفسك .

(٥)

لم تكن خطيئتك ، ولا خطيئتها ، وأنت اليوم تتـسلل إلى ركن المقهى لتتناول المبسم الشيشة وتضعه بين شفتيك ، فينعقد الدخان حلقات تعلو رأسك المنشغل بترتيبات العودة المظفـرة فإذا بالدخان نفسه يتسلل إلى الرئتين المعطوبتين ، فمـا الـدم الذي صبغ منديلك إلا التجلي الأكثر إرهاقا لموتـك الـذي تستعجله الآن .

من قال لهم أن ينقذوكم ، ويغسلون معدتك بالمحاليـل ، ويخلصونها من السموم . السم قد سكن نفسك قبل كل شيء

وصار "مسا " أطاح بعقلك فخلعت نعليك ، ودست الجمـر دون أن يحترق جلد قدميك . كنت فقط تعـوي كالـذئب وخصمك ينظر إليك من نفس النافذة التي كنت تـضع علـى حافتها زهورا في أباريق من فضة ، وقوارير.

(٦)

إنها الكرامة التي أهدرت ، وهـي الـنفس اللوامـة الـتي أبعدتك . إنها أنت في نقطة الصفر ، وقد حاصرتك كل الأرقام من جميع الاتجاهات .

أنت مقتول بالشمس التي تعامدت على جسدك ، وكشفت صرتك فإذا بعريك يكشف للناس سوءتك . أنت أسوأ الناس طرا رغم الكتب التي تملأ الحجرة وتمتد للصالة . كتب بلغـات ثلاث ، وأنت تبغض الاستعمار وتقاوم الاحتلال . مـا بالـه الغزو يأتيك من عقر دارك . ثمان وعشرون حرفا عربيا تمكنوا من كتم أنفاسك ، وتقييد يديك من خلاف فأنت اليوم ذليل . باصفرار رملي يمحو كل الاحمرار الذي رأيته في الليالي الساحرة التي ملأتها بالعنبر والمسك . هيهات أن تجلو الأبنوس لتـستولي على اللب فقد سخرت من سوادك ولست بعنتر، ولا هـذه دياجير الظلمة تبيضها بنواصي قصائدك بالخط الفارسي الـذي يلم صفحاته غلاف من جلد غزال صحراوي أما المنمنمـات فتشف عن أحرف مذهبة . فليت الكتاب بقى وليت العقل ما ذهب.

(٧)

قالت نظلة : كل شيء قسمة ونصيب . قالت : أن هنـــاك من أمور القلب ما لا ينطق به اللـــسان. قالـــت أن النـــصيب غلاب، والقلب قلاب.

كانت محقة ، فالقسمة هي قسمة الغرمـــاء ، وأنـــت أول الخاسرين . نصيبك من الدنيا أن تجلس وحيدا على شـــاطيء النهر ، مدليا يدك لتيار الماء البارد . نصيبك أن تبحـــث عـــن نصلك المراوغ ، وتدخله مربعاتك السوداء . ســقطت كـــل البيادق ، وباتت رقعتك مكشوفة ، فيما الحصان قد كف عن الصهيل . الطابيتان ليس لهما سوى التحرك عرضا وطـــولا . فماذا يضيرك إن مات ملك وعاش ملك ؟! والملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . أنت الذي أفسدت أميرتـــك حـــين تركتـــها وحيدة ، مسكينة ، عارية في صقيع المدينة . مغطاة بصفائح من رقيق الذهب وأوراق الأسهم والسندات . كانت بحاجـــة لأن تسند ظهرها لحظة انكشافك المريع . عارية كانـــت إلا مـــن حبك الذي كان يبرد ككلام مراوغ كلما خرج مـــن بـــوق الهاتف . منكشفة إلا من حبك الذي فتر مع الزمن.

هل كان بإمكانك أن تصارع الزمن ، وهو الـــذي مـــرغ كرامة الجبابرة الأقوياء في الوحل إذا ما صمم على منازلتـــهم

وإيقاع الأذى بهم. فما بالك وأنت ضعيف كل الضعف . خانتك حروفك ، ولم تستطع أن تدفع عنها الفتنة وعنك البلاء . خصمك الذي تسلل إلى المخدع في طيات الألف اللينة والياء المقصورة كانت بيده مفاتيح تنوء بها أيدي أولي العصبة . وفي الحياة عري كاشف ، والسل ينخر صدرك ، ورأسك توجعك ، أما الدم فتراه من خلف البشرة أسود قان.

(٨)

أعلى الحجرة ، في المنطقة التي يتصل فيها الجدار بالسقف تحرك البرص . حين صعدت لم تتمكن من إصابته بدقة فانقطع الذنب . سقط على أرض الحجرة يتلوى في ذبذبات واهنة . لما فكرت أن تصعد مرة أخرى لتكمل مهمة القتل سقط بك السلم ، ورأيت أن الخشب الذي جثم على صدرك كان أثقل من أن تزيحه .

أرتفع أنينك ، ومع الآه أتى زملاء الغرفة . نظروا إليك في سقطتك . حملوك ولم يفطن أحد للبرص . إنه عدوك الذي صمم على الحط من كرامتك ، والتلذذ بسقطتك التراجيدية . من الأرض جئت وإليها تعود.

(٩)

يسألونك عن هزيمة الروح ، قل أنه الأسود عندما يرتع في مساحات البياض ، فيختلي بالزرقة الفسيحة ، ويحيلها دما .

وجاءت نظلة بأعواد خوص وضعتها على قبرك ، ثم أنك رأيتها ترقص شبه عارية ، بقدمين حافيتين ، ودموع لم تكن كاذبة . أرتك كل الفنون التي عشت تحلم بها . أردت أن تريها ميتتك فتراجعت ، وانكمشت الأهلة على حدبات القبور التي تلاصق قبرك.

لكل قبر فتحة تفضي إلى عمق حيث العظام رميم ، والثرى الطيب ، والروح التي ارتقت وغادرت ذلك الجسد . روحك لم تقدر على السمو لأعلى . التصقت بالتراب وتجعدت في ثناياه . ويلك أيها الشقي المعذب.

(١٠)

" ومن آياته أن خلق لكم أزواجا لتسكنوا إليها " . وسكنك هو موتك ، ونظلة تحرك من شعر رأسك . تنتحب بصوت مسموع إذ أنت عصي على الدفن ، والتفتت ، والاندثار، والذهاب.

ذهب العقل ، وذهبت الحبيبة ، والشمس بدت كاشفة لعريك . فمتى يمكنك أن تكتشف ما في الصفر من مرض عضال . وصفار البيض منه مبتدأ الخليقة ، وأنت استسلمت للخديعة ، ولم تفكر في مدية أو مسدس أو قاذف "أربي جي". لم يكن أمامك سوى أن تبطش بذاتك ، الخائفة ، الخانعة ،

المترددة. وعلى هواها جاءت ورقتك الشرعية فإذا بها وقد تحررت منك ، ومن وجعك الذي سكن صدرك دما ، وتمكن منك موتا بات يؤرقك.

فسلام عليك أيها الشقي ، وسلام على المخدوعين الأبرار .

٢٠٠٨/٢/٥.

صديق العصافير



تلك ضرورة . أن أتجه إلى هناك بأقصى سرعة . فــأطوي المسافات ، وأبحث عنه في الثكنات البعيــدة الــتي أخذتــه ، وطوحته بعيدا عن الدار ، والعصافير ، وأسماك الزينة ، وكلاب السكك المبتردة التي كان يحنو عليها بشكل لم أر أحدا يفعلــه غيره.

قالت لي أمه : جاءني صوته منكسرا وحزينا .

انتفضت قلقا ، وزاد توجسي كلمــا أوغــل الوقــت في ريته .سمعتها تبكي في حجرتها . رأيت أن أزوره على صعوبة ذلك . لم أفعلها غير مرة واحدة كنت أمر فيها بــالقرب مــن الثكنات ، وانتظرت ساعتين حتى كادت روحي تزهــق مــن الملل . جاءني يومها فرحا وبشوشا ومد يده وتحسس كــيس الأطعمة والفواكه . غمز لي بعينيه : أما أنت أحلى أب .

صحت فيه وأنا أتأمله مرحا بزيارتي المفاجئة لــه ، ومعــي صديقي الكاتب : سبحان الله . جندي يحمي الوطن صحيح.

ضحك ساخرا: أحمي الوطن بقطعة خشبة لا ذخيرة فيها.

مرت المزحة على خير، وأحضر لنا زجاجتين مـــن الميـــاه الغازية. جلسنا معه يومها لنصف ساعة ثم انصرفنا على الفـــور في خفاء . المكان بعيد ، وتحوطه الأسوار من كل جانب ، أما المحاذير فأصعب من أن نتخطاها بسهولة.

قطار التاسعة الذي ركبته نغص علي البقية الباقية من صفو ذهني ؛ فزحامه مروع ، والأجساد تتصارع كي تحصل علـــى رقعة للوقوف فما بالك بالجلوس .

قالت لي وهي تصر لي بعض الأطعمة المطهية منذ دقائق في ربطة محكمة : كان صوته مشروخا من النحيب .

- هل أخبرك بشيء ؟

- لا .

- فلماذا أذهب ؟

- أنا أدري بابني .

- كيف؟

- إنه يتكتم كربه في صدره.

هل لي أن أتوجه إلى القائد فـأخبره أن لي حقـا علـى " الكاكي "حين خدمت على الجبهة لسنوات ، ودونت كـل ذلك في أوراقي .

الطريق ملتو ، وأشجار الكافور مصفوفة في المنحـدرات . كان يجب عليّ أن أتخطى مزلقان السكة الحديد. شـعرت أن القطار دهمني ، وطسني طسا فتوجعت ، وكان الباب سـيارة الميكروباس قد انزلق وسقطت بعد أن خدر الكسل جـسدي فرحت أتوجع. السيارة التي ركبتها من محطة القطـار حـتى الثكنات كانت مفاصلها تطقطق ، وركابها محشورون حـشرا كقطعة لحم واحدة . كوب ماء في يد شاب ملتح راح يقرا " يس " ، وبرشامة صداع ، مع بعض الماء المزهرالمرشوش علـى الوجه.

وصلت بعد أن عدلت من هيئتي . عساكر في نفس الـسن الغض أشاروا لي أن أبقى قليلا في الظل ريثما يمر الـضابط في نوبته الروتينية .

على الحشائش الخضراء جاءت جلستي ، وخـط الجـير الأبيض يحدد بوضوح المنطقة المحظورة.

وجدته يتلفت ، وبيده قفص صغير من الخيـزران ، كـان يحركه مسرورا . يميل بجسده الصغير ، وهو يـضع الحـب في قبضة يده الصغيرة ليطعم عصافيره الملونة : إحـذر أن تنقـر أصابعك.

- لا تخف يا أبت.

- هل ميزت الذكر من الأنثى؟

- طبعا ، وسأريك.

أدخل يده مترددا فانكمش طائر ،ودخل العش الخشبي في سقف القفص فيما بقى الطائر الآخر يقرب منقـاره الـصغير المسحوب من اليد في رهبة ينقرها نقرة إثر نقـرة ، ويـصدر صوتا أقرب للشقشقة الخجولة.

اقتربت من كشك الشرطة وسألت : هل أخبرتموه أني هنا ؟

- نعم. سيأتي .

- لقد تأخر .

- عليك بالصبر قليلا.

- أنا صابر.

- اختف هناك لو سمحت . وجودك يسبب لنا المشاكل.

في تلك اللحظة وجدته أمامي ، وقد طال شبرين. تراجع عندما رآني ، وتلجلج في الكلام: أنا نجحت.

- مبروك . هديتك ستكون أول الشهر.

- لا أريد هدية يا أبي.

- لكنني وعدتك.

- اسمح لي أن أربي الكلب .

- ستغضب أمك فهو سينجس لها المطرح.

- سأغسله بالماء والصابون كل صباح.

- لن ترضى ، ستنقض وضوءها.

- لكنني أريد أن يكون معي .

سمح بفسحة صغيرة وسع بها المكان وأراني إياه. كان كلبا بلديا رخيصا لكنه في غاية المرح . يتمسح في بنطلونه ، ويهز ذيله في حبور .

- لا داعي للمشاكل .

- والله لن أحدث أية مشكلة .

- أبعد عن الشر وغني له.

- أي شر . الكلاب تجلب الخير.

-يمكنك أن تشتري مسدس بطلقات،وتلعب " عسكر وحرامية" .

- لم أعد طفلا.

- قلت أن الكلب نجس .

- لكنني لست أمرأة لأربي قططا .

- لا قطط ولا كلاب.

جاءت أمه في تلك اللحظة ، وحالما وقع نظرها على الكلب صرخت ، وأقسمت ألا يدخل البيت أبدا. هي أو هو . وقد انتصرت على الكلب فقد كانت هي الأهم . رأيته يبكي ويخفي دموعه بظاهر يده قبل أن يعطينا ظهره .

مرت سيارة التعيين فاختفى الصغير وأمه ، ومرّ كلب هرم لا يشبه الكلب الذي كان الولد قد ربطه بحزام جلدي في عنقه مع شريط من الستان الأحمر منذ سنوات . سمعت لغطا وأصوات ترتفع كي يسرع العساكر بحمل "أروانات" التعيين لتدخل المعسكر بسرعة . مرت سحابة داكنة فأظلت المشهد ، وتفصد العرق على جبهتي ، وأنا أحرك مسبحتي الكهرمان في جلستي القرفصاء ، والعشب يتحرك بنسيم الشمال الذي يسري بنظام عجيب .

وضع يديه الصغيرتين على وجهي ، وهمس بصوت خاله غليظا: من أنا ؟

- أنت الديك؟

- وما لون ريشي ؟

- أحمر على أسود.

- هل أبيض أم ألد؟

- لا هذا ولا ذاك . الدجاجة هي التي تبيض .

- وما كلمة السر؟

- الديك الفصيح يطلع من البيضة يصيح.

رفع كفيه ، وقال لي في خيبة أمل مصطنعة : عليك واحد . لكنك كشفتني.

وخلفه وجدت صندوق صغير وبداخله مجموعة من البلي الزجاجي الملون . طلب مني أن يلعب معـــي " في العـــش وفي الطار " . غلبته مرة ، وغلبني مرتين ، دققت في ملامح وجهـــه كانت سمرة خفيفة تميزه ، رأيت أنه قد قصر ثلاثـــة أشـــبار ؛ لأنني حينما حملته لأدور به في البلكونة مثلما كنت أفعل كلما عدت من العمل وجدته قد خف ، وخف حتى أنني شـــعرت أنه صار في خفة الريشة ، وحينما أدوخ وتدور بي الدنيا أجده يترل بهدوء ، و يضع صدره اللاهث على الكنبـــة الخـــضراء بمنمنماتها البنية ، وهو يشهق : أنت سكرت.

سألته وأنا اقرب وجهي من عينيه البنيتين: من أخبرك بمسألة السكر يا ولد؟

- أنت.

- متى؟

- يوم ذهبنا للصيد قلت لي أن اصطياد كل هـذا البلطي أسكرك . ورأيتك تتطوح؟

- أنا يا ابن الذين...

حملت الصرة من جديد وحاذيت السور ، وذهبت إلى البوابة الخلفية ، فصدمت لأن الجترير الحديدي كان يغلقها بإحكام شديد . عدت شاعرا بالضياع ، ومالبث أن غمرتني نوبة من الضيق .

قربت وجهي من شبكة الحديد بفتحتها المدورة : أهو بخير؟

- نعم.

- لماذا تأخر؟

- سيأتيك حالا بعد أن نجهز الأمر.

- ما الذي تجهزونه ؟

- لا شيء .

قبل أن أحتج وأضرب بقبضتي الباب المغلق ، وضعت يدي على شعره الناعم ، ولاحظت انه مبتل . ملابسه كانت هي الأخرى تقطر الماء .

قسوت عليه وأنا أهدده بالكلام : سأضربك لو كـــذبت عليّ .

- لن أكذب.

- هل نزلت النيل؟

- نعم.

- لماذا عصيت أوامري؟

- كنت أريد أن أعرف كيف تسبح الأسماك.

- بالزعانف والذيل .

- عرفت ذلك لأنني صرت في النهر سمكة !

- وماذا لو غرقت ؟

- كان معنا طوق مطاط.

- إذن هو شيء مدبر.

- أبدا.

- من كان معك من الأولاد. سأخرب بيوهم .

- لا أعرفهم.

كنت أدرك أنه يتستر عليهم ، ويحميهم بصمته . خلصته أمه من ضرباتي الطائشة . فز الولد من مكانه عندما لوّحت له أن يذهب ليغير ملابسه ، وأقسمت برحمة أبي أن أحرمه من المصروف شهرا.

ربما سمعني لأنه ابتعد عني ، واستعصم بالصمت وهو يجذف بيدين قويتين مبتعدا عن الشاطيء ، صحت فيه أن يعود، لكنه طلب مني أن انتظر لدقائق ، وابتعد حتى لم أعد أرى القارب . بعد أن غفوت من التعب وجدته عائدا ويده تلوح لي والأخرى تحمل جرة من الفخار . كان ريقي جافا فتجرعت الماء السلسبيل . هبط من القارب ، ثم ربطه في حبل قصير مجدول بشجرة سدر ، وهزني : أفق.

أفقت فعلا فإذا السور بنفس امتداده البعيد البعيد ، وصفوف من العساكر تدخل ، ويغلق الباب من جديد. أنّت المفاصل وسمعت من ينادي باسمه . فتح الباب المواجه لجلستي بشكل موارب، وسمحوا لي بالدخول.

- ابني .

كان حليق الشعر .

- ماذا بك؟

صمته يؤرقني ، وفي عينيه دموع حبستها كرامة لشاب يقترب من حدود الرجولة.

-هل آذوك يابني؟

لمحت خيط لا يكاد يرى من الأسى يتسلل إلى الوجنتين.

- لماذا جئت ؟

- لأراك؟

- حضورك أتعسني .

- لم أقصد .

- تحملت الألم وحدي .

- والآن ..

- أفسدت كل شيء .

- لماذا تعاتبني ؟ ماذا حدث ؟ هل فعلوها معك؟

- نعم يا أبي . دخلت السجن .

- وضح لي . ماذا فعلت ؟

-كنت في الخدمة ، وكاد زميلي يقع من طوله لأنه صـــائم طول اليوم.

- ثم؟

- تركت مكاني للحظات كي حضر له زجاجة ماء.

- ولماذا لم يذهب هو؟

- الواجب كان يقتضي أن أفعل أنا.

- لماذا؟

-كان يغمغم كالشارد أنه عطشان . وقد ذهبت دون أن أفكر في العواقب .ثم أن الجميع يفعلها .

أكملت : وجاء الضابط ، وأحالك " مكتبا " إلى القائد.

- نعم.

- والباقي معلوم.

- لكنني ورحمة جدي لم أفعل ما يستوجب العار.

- أعرف . لكنك أخطأت. لا يترك جندي مكان حفرته.

- آه . قوانين الضبط والربط.

- بدون ذلك لا ينتظم الأمر .

- أكنت أتركه يسقط من الإعياء؟

- وماذا حدث لك هناك؟

- لا شيء .

- بل حدث .

- قيدوا يديّ ، وصفدوا أقدامي بالأغلال لأسبوع كامل؟!

- أسبوع. كان يكفي خدمتتان زيادة .

- نعم . لم أذق النوم يا أبي أسبوعا.

تأملت وجهه الهضيم ، والتفت إلى العساكر الذين أخلوا لنا الحجرة الملاصقة للبوابة . كانوا يتحدثون في همهمة غاضبة ، وقلوبهم مع زميلهم . أبني . قال لي واحد من العساكر وهو يعدل الكاب: ابنك جدع .

وجاء صوت لشاب نحيل في نفس سمرته : طيب وخدوم .

أحضر ثالث كرسي وربت على كتفي : نحن نحبه جدا .

تحركت أصابعه على الأورج ، وتصاعدت النغمات فملأت المكان " حمامة بيضا .. ومنين أجيبها " . كنت أشجعه بهزات من رأسي ، وكانت أمه تقف بالصينية على الباب متسمرة ، وهي توقّع دقات متتالية بمشط قدمها الأيسر. غنى بصوت ملائكي " طارت يا نينة . عند صاحبها " . صدمتني النظرات المصوبة نحوي من ثلاثتهم . انصرفوا وتركوني معه ثانية . صرنا بمفردنا .

قلت لأمي الحديث المليء بالمرارة : هي تجربة.

- لم تعد الحياة مقبولة.

- كلنا تعرضنا لأكثر من هذا.

- أنا لم أتعود.

غمرني السكون ، ورسفت في كثبان رملية هائلة أوشكت أن تبتلعني فصرخت في الصحراء اللانهائية : أريد جرعة ماء .

سألني، وأنا أمد يدي بالصرة : ما هذا؟

- طعام جهزته أمك؟

- لا أريده .

- لو أرجعته ستقلق.

- ضعه هنا.

- حاضر.

- من فضلك لا تخبرها بما حدث لي.

- لا ، لن أخبرها.

-قل لها أنني بخير.

- سأقول .

- وقفص العصافير الذي كنت أخبئه فوق السطوح.

- أعرفه . ماله ؟

- من فضلك تخلص منه.

- لكن.

- ولي عندك طلب بسيط يا أبي.

- تفضل.

- فتش لي عن عقد عمل عندما أنهي خدمتي.

- لكنني لا أريد لك أن تسافر.

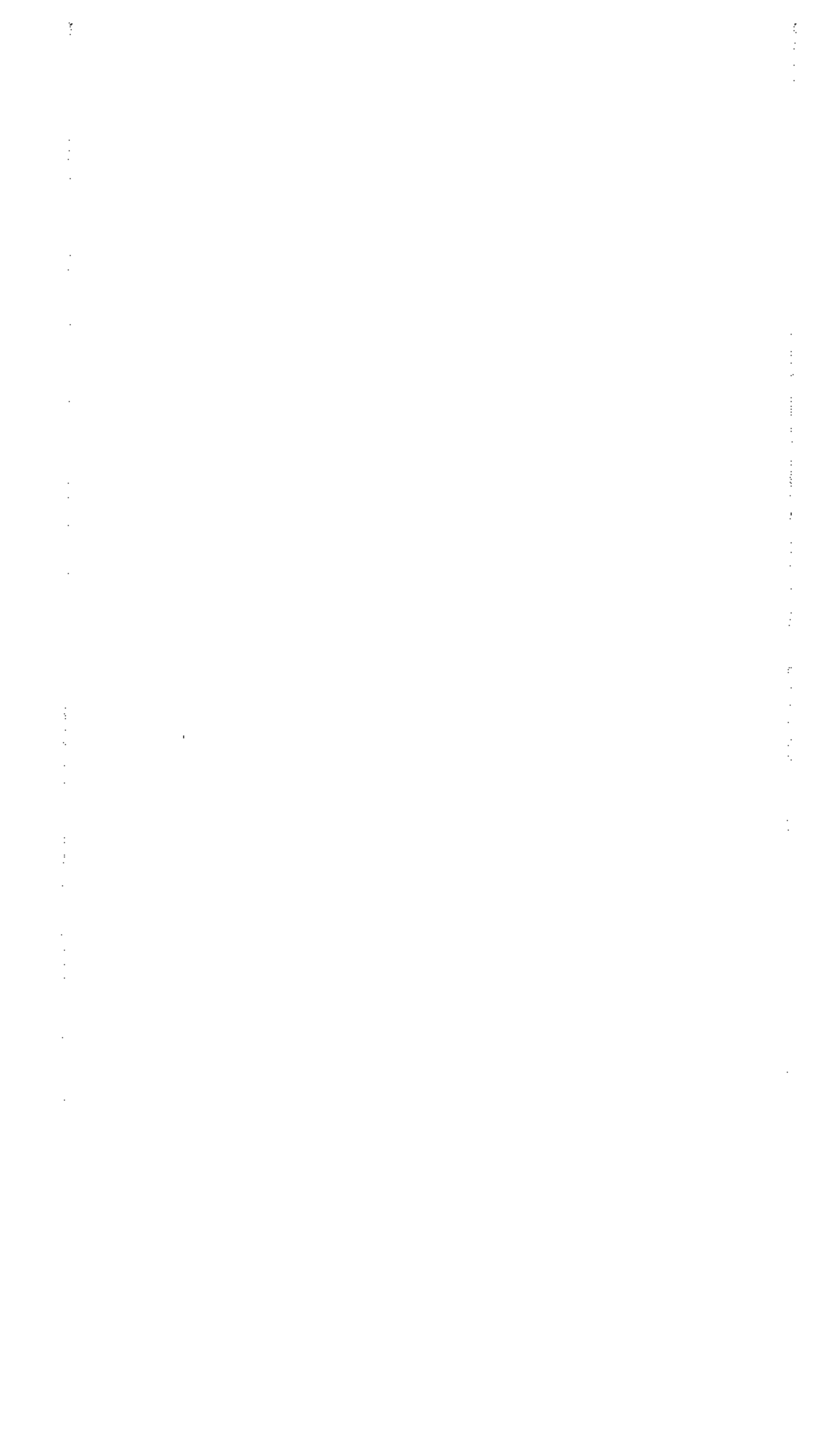
- سأبحث أنا.

كانت ضمته حنونة ، وموجعة . في كل مرة كان يغـــادر البيت كنت أكتفي أن أسلم عليه بحرارة. مع الضمة الرحيمـــة شعرت بروحه المتعبة تنهنه .تحاشيت أن يقع بصري عليه .

تسرسب صوته مختنقا : مع السلامة.

صوبت نظري إلى الرمل الأخرس . تأهبت للإنـــصراف ، و لم أنظر خلفي ، فيما كان العساكر يفكون الجنازير كي أعود للطريق الذي أتيت منه.

القاهرة ٢٠٠٧/٧/١٧



نورس ..

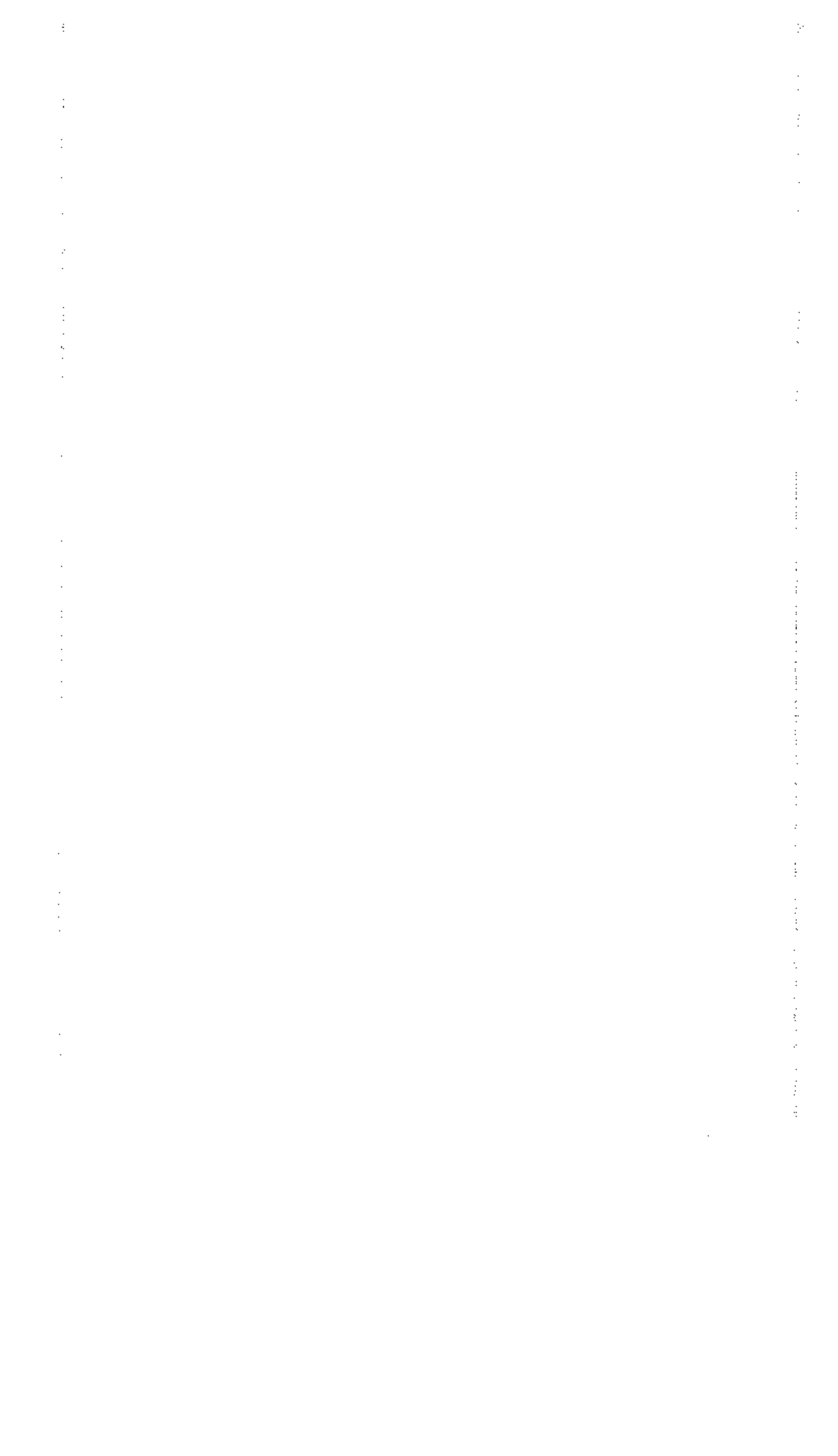


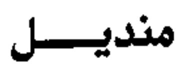
هبط على الحافة المتموجة ، ولمس بجناحيه الخفيفين حافــة الأفق . كان نورسا وحيدا ، يتلون بالضوء . النسيم جــاء في ثنايا ريشه. يفرد جناحيه من الشمال باتجاه الجنوب. ارتطــم بدون أدنى حذر بالحد الفاصل بين زرقة الأفق ، وظلال اليم . ارتطم . لم تنقذه الزوارق، ولا نداوة الفجر الــصبوح. تنــاثر أشلاء ، فسحب الموج تثيره كذرات مبعثرة في اتجاه الشاطيء .

كان ثمة بنات ضحوكات يحلمن بلمسات حب مستحيل . لمس الأحمر أنامل فتاة . ضحكت أخرى ، وضربتها برفق على يدها : العذاري لا يحدقن في هذا اللون بالذات .

على الرمل الصامت انسحب الموج تاركا الأشلاء المبعثــرة على الخط المتعرج . جاء عامل البلدية وملأ مقطفه بالأصداف، والنفايات ، وبقايا الطائر الذي لقى حتفه كونه غادر الــسرب بلا استئذان !

٢٠٠٤/٩/٢٢




منديـــل



منيرة فردت شعرها عند الكوافير . عادت وقد صار شلالا يلف منكبين ضامرين . لكن نظرتها الوادعة المحملقة في الفضاء استمرت طويلا . " كنت أظنك لن تأتي " .

كان يقف بمواجهتها تماما ، يفصل بينهما سور من الحديد المشغول بزهور اللوتس .

" إنها ستمطر يا منيرة ، تعالي نجلس في الكشك هناك " . مد يده نحوها فتغاضت عنها . أبقتها معلقة في الفراغ . تقدمته بوجه ممتقع قليلا : بدأت الأمطار تنزل بهدوء فيسمع لها وقعا حزينا : " قد جئت ولا أعرف ما المطلوب مني بعد الآن ؟ " .

مس يدها ، وهي ركزت عينيها على الحفر الصغيرة التي تشهق فتمتلئ بالماء رويدا رويدا : " احتملي سنة أو سنتين بالأكثر " . لاح الشحوب في وجهها المستدير ، وندت منها آهة مستكينة : " وماذا لو طرق باب بيتنا عريس جاهز ، وابن حلال؟ " .

أمسك يديها عنوة ، ورأى في عينيها حزن ثقيل رمادي اللون : " يمكنك أن تتحججي بأي شيء . الدراسة مثلا ! " .

هزت رأسها غير مقتنعة : " ولم الذهاب أصلا . أنا راضية بغرفة صغيرة فوق السطوح " .

التفت إليها متوسلا : "وطعام كل يوم .. من أين أحضره؟".

كان تبريره منطقيا وواضحا وضوح الشمس في يوم نصفه مشمس ، ونصفه غائم : " لا أظن خطتك ستفلح مع أمي . إنها تتوعدني . وأبي المشلول لا رأي له " .

دمعت عيناها وهي تحدثه . انتفضت واقفة محتجة على الأوضاع المقلوبة في الكون كله . مد يده بمنديل أبيض بخطوط ذهبية من على " الكنار " لتمسح دموعها . رآها ترتجف فارتبك . وقع المنديل في الطين ، بينما خطت باتجاه السور . انحنى يلتقط المنديل ، وينظر ما لصق به من ذرات الطين . حين انتبه إلى الطريق لم يجد لها أثرا.

٢٠٠٦/٣/٢٢

ورقة بمائة.



انقبض صدر الأم عندما فتحت الشراعة فوجـــدت ابنتـــها شاحبة الوجه ، فتحت باب الشقة بـــسرعة : مابـــك؟ لـــون وجهك مخطوف؟!

أسندها ، وبرفق أجلستها على الكنبة العريضة ، دخلـــت المطبخ وعادت بكوب ماء : إشربي . سلامتك.

طوال اليوم تلف البنت على عمل في المدينة بلاجـــدوى ، والمحل الوحيد الذي قبلها طلع الرجل عينه زائغة.

تتردد أنفاسها لاهثة كأنها تكمل سباقا ، ونفيسة تمـــسد شعرها : إحك ما حدث .

البنت تبكي على صدر أمها ، ويدها ما زالت قابضة علـــى شيء لا تستبينه : لا داعي يا أمي.

أبعدها في استنكار : أبدا . لابد أن أعرف كل شيء .

آهة عميقة ، أنة صدر مزموم ، والبنت صامتة لا تريــد أن تفتح فمها ، ولكن وجوم الأم التقى مع شحوب وجه فاطمــة في نقطة ما جعلت القلب يخفف بعض لواعجه، ويبوح : بعــد أن كلت قدماي من المشي والتدوير استندت على جدار محل موبليات استريح ، طلع رجل مهيب الهيئة على رأســه طاقيــة بيضاء وفي يده مسبحة : وبعدين.

فاطمة تغمض عينيها وتسترجع كل شيء . سألني بلهجــة حانية : أية خدمة يا آنسة.

نظرت نحوه فوجدته رجل في الخمسين مــن عمــره، لا خوف منه مطلقا ، وعتبات محله بالرخام : أريد عملا يا حاج.

تأملني مليا ، ووسع لي الطريق إلى مكتبه البيضاوي : وماله؟ نشغلك عندنا .

سألته بأدب وأنا أخفي عنقي بالإيشارب المتدلي أطرافه من الجهتين : وما هو طبيعة عملي هنا؟

ضحك ضحكة شعرت معها أنه لم يصادف واحدة بمثــل سذاجتي: العمل هنا له أصوله . مهمتك فقط راحة الزبائن.

هززت رأسي فرحة : والأجر؟

هز رأسه مشجعا : نحدده تبعا لهمتك، وطبقا لمهارتــك . هل عملت من قبل في معارض موبليات ؟

تجولت عيناي في الأطقم الفاخرة : أبدا . هــي أول مــرة أخرج فيها من بيتنا .

اصطحبني إلى أرجاء المحل الواسع ، وراح يشير إلى حجــرة سفرة بقشرة ماهوجني ، وثانية من قشرة الجوز ، وثالثة عــين الكتكوت .ضرب لي أسعارا خيالية لأحفظها وأنــا أنطقهــا للزبائن : عشرات الآلاف يا أمي . لم أتصور أنه توجد موبليا بهذه الأثمان . مبالغ خرافية والله .

حدجتها الأم بنظرة مستنكرة : خلنا في المهم.

سبقني إلى " الصندرة " ليريني حجرات النوم ، نصعد إليها بسلم خشبي ضيق لا يكد يتسع لاثــنين ، رأيــت حجــرات أشكال وألوان ، هذه " كليوبترا " ، وتلك البعيدة " فينوس "، والتي ترينها في المنحنى " بلكار " أما تلك التي في آخر الطرقــة فهي " رقبة الجمل " . هل تعجبك تلك الحجرات؟

قلت وأنا أستمع إلى أسعارها : نعم . تعجــبني. ولكــن الأثمان غالية .

ضحك مزهوا برعبي من سيرة المال : الغالي للغاليين .

مد يده بمائة جنيـــه . كانـــت جديـــدة ، تخـــشخش في احتكاكها بأوراق أخرى مثيلة أخرجها من حافظـــة جلديـــة سحبها من عبه: هذه مائة لربط الكلام.

كان عقلي يطقطق والمشهد يومض في رأســـي ، رمقـــني ويدي يا أمي تلامس الورقة برسم أبي الهول . حدقت في بؤبؤ العين . كان ينظر نحوي متأملا ، وصامتا . لكزني بكوعـــه في كتفي : يمكنك أن تبدأي الشغل من الآن.

مددت يدي أمسك الورقة . حدقت في الأنف المجـــدوع . كان تمثالا غريبا وبدا لي أن في صمته كبرياء .

سعل الرجل وأخرج منديله "السكروتة " ، وحرك يـــده باتجاه سرير قد فرش بملاءة من الستان الأحمر : كل زبائن المحل من السيدات من حقهن أن يجربن هذا الـــسرير. ولـــو لمـــرة واحدة .

يؤكد على نون النسوة وعينه تـــبربش كأنـــه في انتظـــار قراري . كان يعرف البئر وغطاه . يعرف أننا نعـــيش علـــى الستر، لأنه كان يلمح ويعطي إشارات تحتمل المعنى ونقيضه . لم يجسر على أن يصرح بنيته الخسيسة ، لكن خيطا لامعـــا في كلامه جعلني أتيقظ للمؤامرة المحكمة : هذه مائة ولكن لم تقل لي الأجر الشهري .

رد بسرعة ونفاذ صبر : قلت لك حسب إنتاجك!

كان يقولها بسخرية مبطنة ، ويده تشير بإلحاح نحو السرير . ساعتها كرهت الأحمر كثيرا . تذكرت ذكر الديك رومي وهو يكركر كلما كنا نصفر له صغارا كي نثير غيظه ، وتذكرت أبي حين عاد محمولا في عربة الإسعاف بعد أن داسته عربة نقل الموبليا للحاج الكتاتني .

وقعت عيني ثانية على منظر أبي الهول . كانت رأسه مرمية إلى الخلف قليلا ، لكن بميل يحمل تصميما عجيبا ، أما نظرته فقد كانت تحمل خشوعا لم أعرفه من قبل. رأس الآلهة " مسخنت " ليست بهذا البهاء ولا " حورس " المحلق في السماء .

هزتها الأم : فاطمة . لا أفهم كلامك . هل أنت بخير ؟!

كانت فاطمة في الصندرة مع صاحب المحل الخمسيني وجها لوجه . الستر والمال . مبارزة غير مأمونة . رأس مرفوعة بكبرياء أو ذل مقيم .

لكنها كانت أيضا بحاجة إلى ملابس خروج غالية تساويها بالبنات المترفات كي تجعلها تعيش يومها ، فهي تعرف أن مؤهلها في التاريخ قديمه وحديثه لن يُعين أصحابه قبل عشرة سنوات كاملة مع أنها تحفظ كل شيء عن صعود وانهيارالأسرات الثلاثين ، وكل يوم تقنع نفسها أن الحكومة

ستفي بوعدها وتعين آلاف مثلها ممن ضيعن زهـــرة الـــشباب ونور العين في المذاكرة واستلاف المراجع ، وشراء المـــذكرات بخطوط مطموسة وأحرف متآكلة .

ابنة المرحوم لطفي الصعيدي في موقع متقدم للمواجهـــة . فاطمة في تحد تاريخي ضد أساطيل النقـــل ، وباعـــة الأثـــاث بالآلاف ، وسماسرة السوق الذي له قانون صارم لا يرحم . كانت الصفقة بين بين . والثمرة توشك أن تسقط : لا أفهـــم شيئا . تعبت قلبي يا فاطمة .

حين تجاوز التلميح إلى فعل صريح كانت المواجهة . صفعة هوت فجأة على صدغه ، وبأسرع من البرق هبطـــت الـــسلم الخشبي . بدا مأخوذا : طيب يا بنت الكلب . والله سأريك.

تعثرت في السجادة ووقعت : لكنني كنت قد أصبحت في النور . جسدي في النور . أتفهمين يا أمي ، وأمـــامي النـــاس تروح وتجيء . باءت صفقته بالخذلان . أمي . لقـــد لاحقـــني وصرخ في الناس : سارقة .

كنت قد أفلت الورقة على الأرض ، لحظة أن صفعته بكل قوتي ، يبدو أنه لم يرها .

حينما أمسكوا بي ، وعادوا للصندرة ، وجد ورقته الماليـــة وقد داستها الأقدام . وقتها عاد له اتزانه . هـــز رأســـه وقـــد

استوعب خسارته المؤكدة : اتركوها لتذهب . يظهر الموضوع فيه سوء تفاهم .

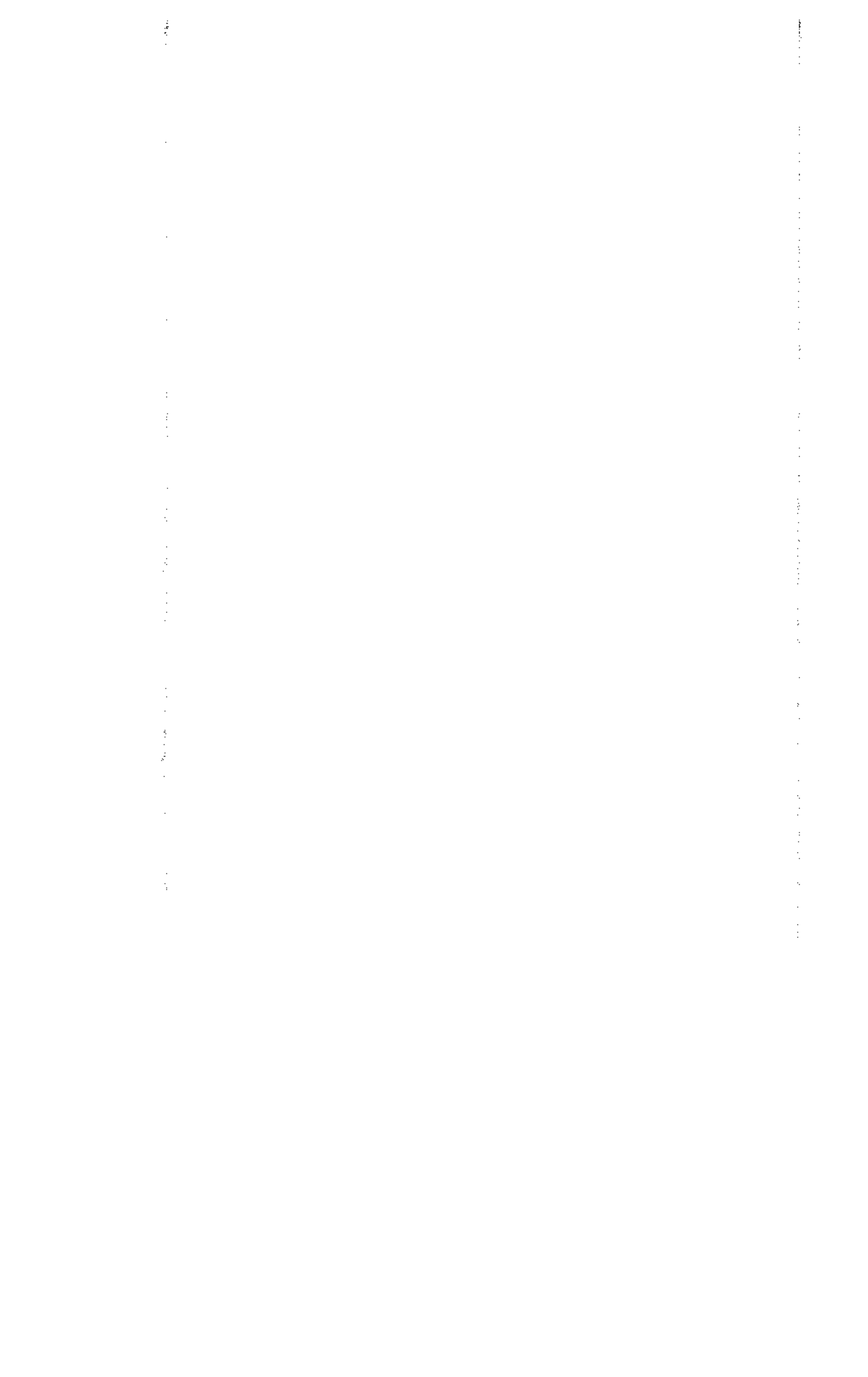
في يدي كانت صورة الرأس جلية تـــروح وتجـــيء في ومضات مفاجئة ، وكانت الصفعة رغم كل شـــيء واضـــحة المعالم على وجهه.

وجهه الأحمر بشحوب خفيف وزرقة لم تخفها ابتـــسامته المصطنعة . كنت أستعيد نظرة أبي الهول ، والتماعة البؤبؤ وأنا أجر رجلي مجهدة نحو بيتنا يا أمي .

٢٠٠٣/١/٢٣



الباشا المرطون



صفاته :

بدهائه وطول باله تمكن خلف خلاف أبوالصعب من أن يصبح أكثر موظفي وزارة العدل انضباطا ، وأولهم إدراكا لأهمية احترام الصغير للكبير مهما كان الأصل المتواضع ، فخدمته للواصلين العالمين ببواطن الأمور ليست محل شك ، فهو العارف بأصول الفطنة والكياسة في كافة أمور الأفراح والأتراح ، وهو تابع أمين للقابع خلف المكتب البيضاوي مادام الرجل الكبير يعتلي الكرسي الدوار ، زد على ذلك أنه منضبط إلى أقصى درجة فلم يؤخذ عليه ملاحظة واحدة حول أن يكون من أصحاب الأيدي الخفيفة التي تسرق الكحل من العين كما أنه رجل محافظ ، وليس له في أحوال الكيف من حشيش وبانجو وغيره أو البص على النسوان والتلاعب بالعين والحاجب للإيقاع بهن ، واللعب على مشاعرهن الرقيقة ، لذا فقد كان حاسديه في غم عظيم لأن لا أحد فيهم قادر على إزاحته من

مكانه ؛ فالوشايات مهما كانت مغيظة فهي كيدية لاشـــك في ذلك . تنتهي عادة إلى تكذيب مؤكد ، وعلى المفترين الأغبياء تدور الدوائر فيخسف الله بهم الأرض مهما تمترسوا بـــدعوات أمهات صالحات رؤوسهن مكشوفة في ساعة استجابة .

نجابته :

ينقل عن زملائه في كفر جاموس أن خلف لم يكن بليـــدا في صغره ، ولم يكن ذكيا ، لكنه كأغلب أطفال الريف كـــان ممتقع الوجه من آثار البلهارسيا وهجمات الأنكلستوما ، وقد مُـــــد على قدميه وضرب ب" الفلقة " أكثر من عشر مرات لأنه لم يحفظ "جزء عم " على بساطته . ويقال والعهدة علـــى الراوي أنه كان يتلقى العلم في الكتاب ، وفجأة ترك جلـــسته على حسيرة مولانا وانطلق كالسهم باتجاه حقـــل البرســـيم ، وعاد بعد دقيقتين لا أكثر وفي يده حمامة حية . مد يده للشيخ أن خذها . لكن الرجل رغم عماه لسعه بالعصا على صـــدغه الأيسر ووبخه لأنه ترك المكان بدون إذن . قبل أن يرد خلـــف على السؤال المحير: كيف فطنت لسقوط فرد الحمام في حقـــل البرسيم المحاذي للترعة جاءت أمه بعد أن حـــدثها قلبـــها أن حادثا جللا وقع للمحروس ابنها ، فرقته بالشبة والفـــسوخ ،

وهي التي دستها في عبها فور خروجها، وقالت لمولانا : صلي على النبي في قلبك. ربنا قذف في قلبه نور كي يرى الحمامة بعين خياله وهي دائخة في الفضاء فسارع بالإمساك بها . لكن الولد خلف كان له رأي آخر عندما رد على أمه بأنه سمع نحيب الحمامة الذكر فأدرك وجود مصيبة في السرب ، ولذا أطلق ساقيه للريح وهي مجرد نقطة في آخر الأفق حتى سقطت بين يديه ، ولله في خلقه شئون .

هشاشته :

يقال أن قوته في ضعفه الجسدي فقد كان يشعر بوجع شديد كلما مشى على قدميه مسافات طويلة ، وربما لهذا السبب وحده قرر أن يجرب مشية " السلحفاة " ، واختبر قدرته على الزحف على يديه وركبتيه في الذهاب والعودة من المدرسة ، وقد تم تعويضه عن ذلك المسعى تعويضا ربانيا إذ كثيرا ما عثر على قطع نحاسية أوفضية من النقد الذي أسقط في الليالي التي بلا قمر من بين أيدي الناس في عودهم للقرية ، وفي مرة وجد فردة قرط ذهبي متموج ثمن بعشرين جنيها ، وفي مرة أخرى أمسكت يده خلخالا رنانا من معدن مجهول ، ولكن الصائغ قال إنها مجرد مصوغات قشرة لا ثمن لها واكتشف الملعوب بالذهاب للبندر وبيعها بثمن لم يحلم به أبوه

الغلبان الذي يجهز للفواعلية أكواب الشاي أمام المباني التي هي في طور التشييد.

حين دخل الثانوية لم يكن مناسبا له الزحف ، ففكر في حيلة ليستمتع بهوايته وذهب للمكتبة العامة وأحضر كتابا عن " الحرس الوطني " وفيه صور العساكر تزحف مؤدية مهامها الخطيرة ، وعلّم بقلمه على تلك الصفحات ، وطواها بعناية . وقف في طابور الصباح وألقى كلمة إذاعية عن فوائد الزحف في الحرب والسلم. وفي نهاية الثانوية العامة حصل على مجموع متوسط أهله بصعوبة لدخول كلية الحقوق مع أبناء البشوات والبهوات وكبار القوم فكان الزاحف الوحيد بينهم .

عصاميته :

نضجت شخصيته في أوائل حكم الرئيس جمال عبدالناصر ، وكان كلما سمع الصيحة الشهيرة: " ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعمار " رفع رأسه محاولا أن ينظر لصفحة السماء وما إن يفعل حتى يشعر بطقطقة في عنقه ، ويشعر بأن روحه تنسحب من بدنه . قال ذلك لزملائه في المدينة الجامعية فأشاروا عليه بالذهاب للطبيب ، ولكنه لم يفعل ، وقد اقتنع أنه مثل جيله قد جاء في موعده مع القدر حسب مقولة الزعيم الذي طالب بالزحف الثوري وهو الشيء الوحيد الذي كان قادرا عليه . انضم إلى التنظيمات الثورية المطالبة بمحاكمة قادة

الطيران بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وخرج في مظاهرة سلمية للمطالبة بالحرب الشعبية ، وقد ظفر بلكمتين وكدمة زرقاء في وجهه ، وضربه عسكري الأمن المركزي بعصا كهربية جعلت رأسه تدور ، وناله من الطيب نصيب برفسة مؤكدة بين فخذيه جعلته يوقن أن السياسة بنت ستين كلب بدون أي تجميل أو تزويق ، ولما أغشى عليه ، حمله الرفاق لباحة بيت عائلة مستورة . أناموه ، ورشوا الماء المثلج على وجهه فأفاق وهتف به الجميع : قم يا بطل ، واصل مسيرتك المظفرة .

كانت المرة الأولى والأخيرة التي يلعب فيها هذا الدور . حمل أوجاعه كوسام ومشى يتبختر في ساحة الكلية ، ولمح البنات يشرن بأصابعهن إليه : البطل ، البطل قادم .

في ركن من كافتيريا الكلية استلف دفاتر المحاضرات من أجملهن ، وسهر الليالي في نقل الدروس ، وأتعبته رأسه وهو يذاكر المواد والقوانين بين جنائية ودستورية ومدنية . لما انقطع مصدر دخله لوفاة أبيه تحت سلم بيت قديم كان ينصب فيه عدة الشاي تبناه أحد الأساتذة بعد معرفته ببطولته يوم المظاهرة . طلب منه أن يعطي درسا خصوصيا لابنته الناهدة الكاعبة التي تطل على شرفة الثانوية العامة بقلب محب ، فلم يكذب خبرا . وقد رآه زملاء له يمسك بسلة من الخوص لها يد مقوسة حيث كان يشتري الخضر والفاكهة والخبز البلدي الملدن لأسرة الفتاة ولولي نعمته المدرس الجامعي . وهو ما نفاه في حينها بكل حسم لأنه من غير المعقول أن يدرس اللغة

العربية والدراسات الاجتماعية ويقوم بمهنة الشغالة في نفس الوقت والمكان . صحيح خسئت كلماتهم . من المرجح أنها إشاعة بالغة السوء لحقت بهذا الشخص وإن لم يستطع نفيها تماما لأن المنظر تكرر مع طلاب آخرون رأوه في ذات الموقف .

يقال أن الأستاذ الجامعي ضبطه يقبل ابنته حين فتح باب الصالون فجأة ليسأل الشاب المهذب عن مستواها التعليمي ، وقد طرده شر طردة رغم أن خلف أقسم له أنه كان يقيس درجة حرارتها بوضع فمه على خدها كما تفعل أمه المسكينة عادة ، وهو الأمر الذي لم يقتنع به الدكتور حيث يوجد في البيت ترمومتر طبي في جراب جلدي للقيام بنفس الغرض . كان يمكنها أن تخبره بوجوده ليستعمله في معرفة درجة حرارتها . يبرر الحاسدون مزاعمهم برسوبه في تلك السنة ، لكنه بقوة إرادته تجاوز الكارثة ، وتخطى أكبر عقبة واجهته في حياته ، وبتقدير مقبول حصل على الشهادة . ولم تمض غير أشهر قليلة حتى وظفته وزارة القوى العاملة في وظيفة بأدنى درجات السلم الذي استقر في قاعه إلى حين ميسرة .

تجنيده :

لا أحد يعرف كيف اختاره ضابط السرية المشاة ليكون عسكري " مراسلة " فهي مهمة ثقيلة على نفس الإنسان

السوي ويختار لها دائما العساكر " العادة " ممن لم يحصلوا على أية مؤهلات . وقعت العين الخبيرة عليه فأخذوه من طوابير الاصطفاف ، وساحات التدريب ، وأقعى يغسل بالمياه والصابون في طست بلاستيكي كبير ملابس الرائد بعد نزع دبابيره ، ووضعها بعناية فوق الدولاب الميري ، وكان مدربا على إعادة طهي " اليمك " ، وتسخين الجراية ، وتنظيف الخيمة بالمقشة الجريد ، وفي ركن مخفي كان يمسح البيادة الضباطي فتلمع كالمرآة.

ومن رضا الرائد عليه حدث أنه رقاه بسرعة فحصل على شريطين ثم أربعة ، وأعفاه من مهمة ضرب النار في قمة "فايد"، رغم أن هذه مسئولية جسيمة تودي بالمقصر إلى الحديد.

ربى خلف شاربه ، وكان يستغل فترة نزول الضابط في إجازته الميدانية فيجلس في صدر الخيمة ويضع ساقا على ساق، ويقرأ الصحف الرسمية الثلاثة ثم يحل الكلمات المتقاطعة ، ويشرب الشاي المخصوص بلا كافور.

ولما تحركت الكتيبة للنسق الأمامي ، تركه الرائد في المؤخرة ، ونشبت حرب ١٩٧٣ دون أن يطلق رصاصة واحدة ، ولقد استشهد من سريته بالمشاة حوالي سبعة شهداء وجرح عشرين وبقى هو سليما . ولما وقعت محادثات الكيلو

١٠١ في طريق السويس القاهرة يقال أنه قد كلف وحده دون غيره بعمل الشاي للمتفاوضين .

وبعد مرور عام حصل على شهادة آداء الخدمة العسكرية مع تقدير " قدوة حسنة " . ومن المفيد أن نذكر في هذا الموقف أن لا أحد أوصله ، وشال عنه المخلة -كما هي التقاليد المرعية -فيما هو يودع حياة الجندية متجها لمكتب التعبئة ليدرج في سلك الاحتياط بل تركوه يمضي وحيدا ، ورآهم بعين رأسه يشوحون له بأيديهم ، ويصدرون من حلوقهم أصواتا أشبه بالشخير!

عمله :

يخطي من يظن أن الصعود إلى القمة شيء يخضع للحظ أو المصادفة بل هو أمر تحكمه قوانين في غاية القوة والانضباط . ولو أنك طلبت مني أن أضرب لك مثالا بما أقصد لما وجدت أفضل من سيرة حياة خلف خلاف أبوالصعب.

الرجل بدأ من الصفر ، فبعد خروجه من الجيش أشاع أنه من أبطال العبور ، ولهذا أكرموه بالنقل من مبنى حقير في مدينة منسية إلى ديوان رئيسي تابع لوزارة العدل بالعاصمة ، وبالرغم من الظروف الاقتصادية العصيبة التي مرت بالبلاد فور خروجها من ضائقة الحرب فقد خصصوا له مكتبا وعينوا له

ساعيا كهلا يفتح له الباب ويغلقه بخفة ، ويضرب له تعظيم سلام كلما أطل بوجهه البهي .

ما حدث بعد ذلك أمر أغرب من الخيال إذ طلب خلف إعفاء الساعي ، وأحضر منشة من الخوص كان يستخدمها في شئون التنظيف ، وبطريقة سرية أدخل إبريق شاي للمكتب ، وكان يعد القهوة المضبوطة لرئيسه المباشر محوجة بالحبهان حتى نال الرضا ، وحصل على ترقيتين وأدرج اسمه في القائمة التي سيكرمها الباشا الوزير في الاحتفال السنوي .

وحدث ما عجل بقفزاته المحسوبة حين حضر الاحتفال وقد ارتدى بدلة جديدة من الكشمير كان قد اشتراها بالتقسيط ، ولما نودي على اسمه صعد إلى المنصة وتسلم شهادة التقدير ، وبدلا من الهبوط للقاعة اتجه من فوره إلى مكبر الصوت ،وأخرج من جيب سترته ورقة مطوية ، فردها ، وألقى قصيدة عصماء في مدح السيد الوزير الذي اعتبره شبيها في الشكل والأفعال بسيدنا عمر بن الخطاب ، وكأنه قد رآه وعاينه ، وفور الانتهاء من إلقاء القصيدة اقترب ثانية من المنصة فصافحها فردا فردا ، حيث ضجت القاعة بالتصفيق ، وانتفخت أوداج خلف ، فيما سرت في القاعة همهمة أنه سيطرد لا محالة للنفاق الواضح في متن القصيدة فيما سرت نغمة مختلفة تشي بصعود نجمه . ونظرة واحدة لوجه السيد الوزير الباشا حسمت الأمر لصالحه ، وقد حدث أن الحفل انتهى فإذا بالباشا الكبير تحين منه التفاتة للموظف الجديد فيهز

رأسه في حبور وهي اللفتة التي انحنى لها جسد خلاف حتى أن رأسه كادت تلامس الأرض، وسمعت في القاعة رفرفة حمامة كانت قد هبطت منذ سنوات بعيدة في الحقل خائرة القوى بعد مجهود عنيف.

زواجه :

من القلب للقلب رسول . هذه هي الحكاية بالضبط . كان مكلفا بإحضار ملفات قضايا خاصة بالمجلس الحسبي ، وهو تكليف لا يحظى به سوى الموثوق بهم من دائرة القلم ، وخلف خلاف سمعته كالجنيه الذهب ، وعليها فقد ذهب وأحضر الملفات ، ووضعها على مكتبه ريثما يلتقط أنفاسه . دخلت في تلك اللحظة امرأة فاتنة الجمال تلبس الأسود ومعصمها تطوقه أسورة من الماس الحر يخطف الأبصار ببريقه . كانت مضطربة الأنفاس لصعودها درجات السلم بعد تخصيص الأسانسير لكبار الموظفين ومنهم خلف ومن يعلوه في المقام . بإحساس الصياد تأكد أنها الفريسة المنتظرة . كان اسمها نازك . شكلها يوحي بالثراء والفتنة والجمال الذي لن يغرب قريبا. قرب مقعدا وأجلسها . طلب كوب ليمون مثلج، وبعد "س " و" ج" عرف أنه قد وقع على كنز ثمين فصحبها للمكتب المطلوب تسوية أوراقها أمامه ، وغمز بعينه للموظف المسئول أن يأخذ باله منها لأنها قريبة له وسوف يوافيه بالملف حالا .

بعد يومين لا بل ثلاثة أيام استقل القطار ، وتوجه إلى أمـــه وصحبها للقرافة كي يقرأ الفاتحة وتقرأها معه على قبر المرحوم خلاف أبو الصعب . سألها أن تبارك زواجه بسيدة من العـــالم فوق الفوق . ضربت يدها في صدرها حين عرفت أنها أرملة لها ذرية ، وسبق لها الزواج . هزت رأسها : يفتح الله يا بني بنات القرية على قفا من يشيل . هزها من كتفيها : لا سبيل أمامنـــا للصعود إلا بأن أتزوجها.

سألته عن موعد عقد القران ، والفرح فرفع سبابته لتتقاطع أمام شفتيه المزمومتين : هس . أي فرح ؟ الفرح فرح القلوب.

شعر معها بعد ليلة الدخلة أنه يغرق في بحيرة من عـــسل ، ولم تكن غريرة لتوقع له على توكيـــل عـــام لإدارة أملاكهـــا الخاصة ، وكان المجلس الحسبي قد عينها وصية على التركة حتى يكبر الصغار ، فأسقط في يده .

وقف أمام المرآة وتأمل نفسه في الروب الحريري الأحمـــر بعد أن نزلت لزيارة أهلها : متعة ما بعدها متعة ، والمال يـــأتي فيما بعد.

اخضرت بطنها بالحمل ، ولم ترتح لطريقته في التعامل مـــع مالها ، وحدث بعد أن أنجبت فضيلة وكريم أن شعرت أنهما - هي وخلف -جوادان كل منهما يتجه لناحية معاكسة .

حاولت أن توقف الانهيار لكن عينيه كانتا مركزتين علـــى الثروة . رأت أن تجربه في توكيل بيت واحد من ميراثها فباعه ،

ولما علمت ثارت في وجهه وطلبت الطلاق . رغـــم وجـــود البنت والولد فقد قايضها بالحصول على نصيبه من الثروة بعـــد أن باع شبابه لقاء تجربة فاشلة.

صرخت فيه : أنت شقي ، تعيس ، طماع .

لكمها في وجهها فسال دم ، وجاء الأهل ثائرين فلاطمهم ولاطموه . خلصوها منه بعد أن دفعت له مائة ألف جنيها عدا ونقدا .

كان يرتب حقيبته الجلدية متجها للغرفة الوحيـــدة فـــوق السطوح التي عرفها أول تعينه.

الولد ينظر نحوه في خوف والبنت تبكي في حـــضن أمهـــا نازك ، أما هو فقد وضع المبلغ المحترم في حقيبة سوداء صـــغيرة ودسها تحت إبطه . نزل السلم وهو يشعر بأنه يواصل الزحف نحو هدفه البعيد. تساءل في داخله : الزحف لأسفل خير وسيلة للوصول إلى الهدف !

نبوغه السياسي :

قيل : " ليس لعيي مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولـــو حك بيافوخه عنان السماء " هذا عين العقل ، ورغم الـــسجع الذي جاء به الجاحظ فخلف لا ينقصه في هذا المضمار لـــسان فهو فصيح بطبعه ، مقل في كلامه ، غير مطعون في أصـــله إلا

إذا اعتبرنا الفقر الذكر عيبا ، وهو ليس كذلك . لذلك عندما رفع الرئيس المؤمن يده وطلب " قلم الإمضاء" لتوقيع مرسوم إنشاء الأحزاب كان من أوائل من سارعوا للالتحاق بالحزب الكبير الذي يفتح ذراعيه لكل الساعين لخدمة الوطن عن طريق الزحف أو الجري أو التسلق على الجدران الملساء إيمانا منهم بوعورة المرحلة. يذكر في هذا الصدد أنه لما انتشر الانفتاح كان ممن قطفوا أحلى الثمار ومنها التفاح . نعم . أكل التفاح بكل ألوانه وأصنافه : أمريكي ولبناني وسوري وبلدي بل بلغت المهزلة أوجها بالذهاب إلى امرأة مسكينة في سوق الجمعة وشراء كيلو جرام من التفاح المفعوص المعروف ب " خد الجميل ".

هو إذن الخطيب المفوه في كل اجتماع ، والرجل المطلوب في كل محفل . في الاجتماعات العامة يجلس في الصف الثاني أو الثالث وأحيانا يخدع حراس الأمن فيسحب الدبوس المثبت عليه اسم مدير المصلحة الحكومية ، ولا نكتمكم سرا أنه فعلها مرة وكان أن نزعت يده دبوسا قد خصص لكرسي مدير الأمن العام فاضطر الحارس المكلف بالسيطرة والتوجيه لوخزه في صدره وإعادة تثبيت الدبوس .

هو مع الكبار لأن اللعب معهم مضمون . هم يحافظون على الاستقرار ، وبيدهم مفاتيح الوصول إلى السدة العليا . كما أنهم بكروش منتفخة ، وأعين متورمة ، وضحكة تشي بثقة لا حدود لها. ابن خلاف الرجل السرّيح على باب الله

صار من النخبة ، و لم لا وهو الذي يشرف بنفسه على وضـــع خطط سحق المنافسين من اليمين المتحجر واليسار المغامر؟

أهل اليمين سيدخلون الجنة طبعـــا في الآخـــرة لكنـــهم سيحظون بعذاب الدنيا وبهدلة السجون والجـــري في عتمـــة الأقسام ومنحنياتها القاسية ، أما أهل اليسار فهـــم فاســـدون ومنهم يكون حطب جهنم لأنهم كفار والعياذ بالله. هو منـــتم بالفطرة للمعتدلين في المأكل والمشرب وأمور السياسة . يشهد بذلك تنقلهم الذكي والعبقري بين التنظيمات العبقريـــة مـــن الاتحاد القومي فالاتحاد الاشتراكي فمنبر الوسط . والغايـــة في كل مرة حل مشاكل الجماهير .

جاءته صفعة من حارس الوزير ، وهو يوسع له كي يجلس فقد ظن أنه ينوي الاعتداء عليه ، ولما أسفرت الـــصفعة عـــن إهانة بالغة أمام شهود عيان تمت المصالحة في مكتـــب ضـــيق بحضور مسئول التنظيم وكلف خلف بشئون الأمن وخصصت له غرفة مفروشة بالسجاد الشيرازي وتليفون أسود بقرص دوار ومكيف يبخ في الحر برودة وفي الحر بردا وسلاما.

شيء واحد كان يضايق خلف هو أنه سمع لمرات فيما هو يمضي في طرقة الوزارة كلمة يتهامس بها موظفون صـــغار : " المرمطون" . في البداية لم يضع للأمر أية أهمية باعتبار أنها غمـــة وستزول لكن الأمر نفسه تكرر في الشوارع والأزقة والميـــادين بل أن جماهير غفيرة أشارت إليه حين أحرز فريقها هـــدفا في

مرمى الخصم . صاحت الجماهير وهي تلوح بالأعلام نحوه في حقد وتشف : " لاعبنا جـــاب الجـــون .. ياســـلام علـــى المرمطون " . عندها فاض به الكيل وقرر أن ينصرف لفـــوره ، وألا يحضر مباراة جماهيرية بعد اليوم ، وجاء بلفة قطـــن طـــبي حيث انتزع قطعتين ، وبهما سد أذنيه وسار في أمان تحفه رعاية الرحمن .

صعوده الأخير :

قال ابن عبدالبر في بهجة المجالس : " لا أمل للأرعن حـــتى فيما هو أبسط من الشهادة لأن مجالسته مكروهة ومـــصاحبته مبغوضة " . وخلف غير مقصود بهذا القول بالمرة ، لذا نراه قد تولى منصبا رفيعا بعد أن ثبتت التقارير أنه من حفنة المخلصين ، ودفع به للصدارة وأحيطت ترقياته بستار مـــن الكتمـــان ، وصار من الكبار الذين يظهرون في كل محفل بابتسامة واثقة ، وتلويحة يد تفيض بالتواضع.

أخفيت من ملفه كل الأوراق التي يمكن أن تدينه في سلكه الوظيفي خاصة بعد بيعه لبيت نازك ، وجيء بالولـــد كـــريم وبالبنت فضيلة بعد مرور فترة الحضانة القسرية . تم ضـــمهما للمنزل وعينت شغالة اسمها أم سيد جيء بها من كفر جاموس مسقط الرأس كي ترعى شئون البيت من طبخ ومسح وغـــسل خاصة أن خلف خلاف كان قد حصل على شـــقة واســـعة

بدورقي مياه بإيجار زهيد جدا وهبها له أحد المريـــدين نظـــير خدماته الجليلة للوطن.

فظاظته جعلت الولد يقسم بالله إن لم يعيـــده لبيـــت الأم فسوف يلقي بنفسه من النافذة ، وبالفعل صعد على حافتها ، فأمسكت به شقيقته وصرخت في أبيها الذي طلع لهم فجـــأة كالعفريت : " الحق أخي . حرام عليك " .

وافق على إعادتهما بشرط واحد هو أن تكتب نازك ورقة تتنازل فيها عن النفقة . ولما فعلت أخلى سبيلهما من البيـــت ، وجلس يحصي مكاسبه وخسائره بورقة وقلم رصاص فكـــان الرابح .

الآن ، وقد قطع كل صلته بشئون الحريم ، والبيت ، ووجع القلب . آن له أن يشغل نفسه بقضايا الجمـــاهير ،وخدمتـــها تعويضا لها عن كل ظلم وحيف حيق بها . كـــان مـــشروعه العبقري بتقسيم أرض قريبة من قريته شارك فيها أحـــد بقايـــا الإقطاعيين . النصف بالنصف ، والأوراق ستكون صاغ سليم والبركة في التوقيعات والخاتم المستدير ففي داخله النسر القوي بمنقاره الحاد ومخالبه الجارحة.

لا يمكن أن ينسى خلف خلاف أبو الصعب أنه ابن ريف ، وقريته لها عليه حقوق فكان أن اقتطع من التقسيم المعتمد قطعة أرض لتكون مسجدا وقطعة أخرى لتصير مدرسة ، وهو مـــا حقق له ولشريكه إعفاء تام من الضرائب.

مخطيء كل من يتصور أن خلف طماع أو جشع أو هجام بل هو سياسي محنك ، واقتصادي بارع ، وصاحب نظرة ترمي لبعيد.

نصحه صديقه مختار الأسيوطي أن يستفسر عن حظه المائل مع النساء فذهب لقرية أم العطا ، وقابل الشيخ صراف الـــذي يغيث المربوط ويزوج العوانس ، ويفك الأعمال . ظهر له مـــا كان مختبئا وراء السطح الساكن الظاهر فقد عثر الشيخ علـــى العمل ، ونبه إلى المكان تحت عتبة البيت مباشرة فإذا به عرف ديك فيومي مشبوك بظلف جاموسة مع عشرة جنيهات مـــن أيام الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان.

ما إن انفك العمل حتى شعر خلف وهو يـــشرب كـــوب عصير الأناناس أن صدره قد انشرح ، وأن الدنيا قد ابتـــسمت له أخيرا ففتح مائة علبة عصير بيده لزبائن المقاهي المجاورة رغم أن الكل كان يناديه باسم الجديد " الباشا الكبير" . حـــدث أن شابة حسناء تبيع البوظة دقت على بابه وسألته إن كان يشتري شيئا من الوعاء الفخاري المختمر داخله الشعير . شهق لمـــرأى هذا الجمال الرباني ، وجعل أم سيد تدخلها . سألها عن أصلها وفصلها ، ولما علم منها أنها خالية ، بلا زوج أو ابـــن عـــرض عليها الزواج فمالت برأسها خجلى كالبنات الغير مجربـــات . زغردت أم سيد وارتجت الحارة بفرح عظيم ، وجاءت مزيكا " حسب الله " بعد أسبوعين بالتمام والكمال . دقت الكاسات والصنج ، ووقف المايـــسترو يعـــزف مـــارش "والله زمـــان

ياسلاحي". دخل الباشا الكبير دنيا وإن لم تستطع الصبغة إخفاء شعره الأشيب ؛ فقد نفرت خصلة أوجعت قلبه وقلب العروس .

نهاية غيرمؤكدة :

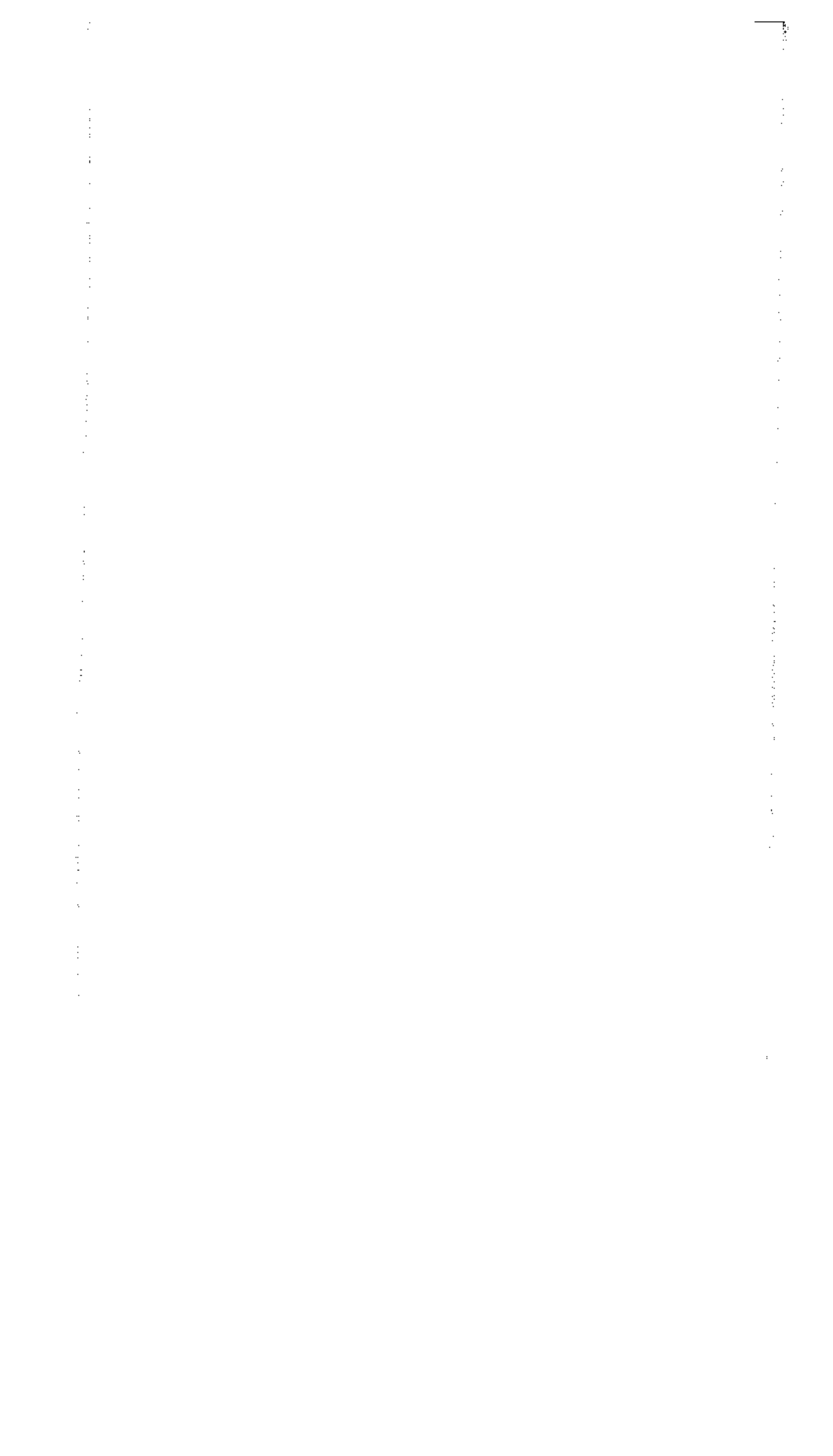
لا أحد يعرف بالضبط كيف كانت النهاية . وجد خلف خلاف أبو الصعب مطعونا بسكين في ظهره وقد فاضت روحه وصعدت إلى بارئها فيما عيناه جاحظتان ، شاخصتان نحو السقف . كانت أم سيد قد حضرت من كفر جاموس ومعها فطير الصباحية المشلتت وكوب ممتلىء حتى الحافة بعسل النحل ، وصحن به قطع الجبن القريش . طرقت الباب فلم يفتح أحد. خشيت أن يكون قد حدث مكروه لمولاها وتاج رأسها . نزلت وسألت البواب عن سر عدم إجابة أحد لطرقاها .

تذكرت أن معها مفتاح البيت منذ جاءت للعمل أول مرة . مدت يدها في عبها وأخرجت المفتاح الصديء القديم . وضعته بالثقب . دخلت تتنحنح ، وفي أثرها عويس معوض الذي وقع عينه على المنظر المرعب. تجمد الدم في عروقه ، وخارت قوى أم سيد فلم تتجاسر على الصراخ بل هوت مغشيا عليها. حين تنبه عم عويس للباشا مضرجا في دمائه صرخ صرخة هائلة زحفت على ذبذباها جموع من الحارة العتيقة ، وبحثوا عن بائعة البوظة فلم يعثروا لها على أثر. جاءت

الشرطة ، ورجال البحث الجنائي ، وعكف المحققـون علـى استجواب كل من تربطه صلة بالمجني عليه . قلبت الدنيا رأسـا على عقب و لم يعثر على الجناة حتى وقتنا هذا.

لقد شيعت الجنازة ، وتقدمها صف من كبار رجال البلد ، وأمسك فيها عدد من صغار الموظفين -كانوا خلـف الـنعش مباشرة -بالشهادات داخل أطرها المذهبة تشهد بعبقريته وفيض علمه . أقيمت احتفاليات التأبين ، وسودت صفحات تتحدث عن إسهامات الرجل في دعم مسيرة الوطن . تبارى المخلصون في ذكر محاسن ميتهم الباشا ، وقد اقتنع الجميع أن هذا الرجل كان نابغة عصره ، وفلتة زمانه ، والمفوه العظيم للمرحلة ،لـذا فلا يوجد من يسد الفراغ الذي تركه غيابـه الـدامي . ورد المشككون والحاقدون قولهم أنه كان أكبر دهل شهدته مـصر الحديثة منذ بداية عصر محمد علي ، وأنا بطبعـي لا أريـد أن أميل لأحد الرأيين ،حسبي أن أدون ما أعرفه عن الرجل ، وأنا في انتظار ما سيقوله المؤرخون بصدق وموضوعية عن شخصية خلف خلاف أبوالصعب المشهور بالمرطون .

٢٠٠٧/٥/٢٧



" الروسي"
.. سيرة حياة كلب ؟!



(عن رواية شفاهية حكاها لي الصديق القاص محمد خليل ، الأربعاء ١٨/ ٨/ ٢٠٠٤، في مقهى شعبي بعابدين . . بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على حدوثها .. لم يدونها الكاتب بأي من أوراقه .. قررت أن أعيد صياغتها بعد أن سمعتها منه) .

• مشهد أول :

(مطار غرب القاهرة الحربي / نهار خارجي)

في هذا اليوم كنت متأففا ، وضجرا من طـوابير التمـام ، أمشي في شمس لا ترحم ، كأن أشعتها جاءت لتغتـال أمـني وتقلق راحتي ، إذ يتفصد العرق على جبهتي ، وأنا أمر بالقرب من موقع ثكنات الروس ، وكنت أحسدهم على دشمهم المكيفة وتعيينهم الفاخر ، وزيهم اللامع ..

كانوا مجموعة خبراء جاءوا مع طائرات خفيفة من طـراز " ألفا " ، يشاركوننا التدريب على الأسلحة الجديدة ، فيما يندر

أن تجد حوارا أو لمسات إنسانية بيننا وبينهم ، وقد راقني أن أتسلل إلى الحائط الخلفي لدشم الأفراد لأظفر ببعض ظل وقت القيلولة ، ولم أنتبه إلا وجرو صغير جميل يتجه نحوي في براءة كاملة . آه .. لقد ذكرني بقريتي ، وهل توجد قرية مصرية بلا كلاب؟

أخذته في حضني ، ورحت أغمض عيني وأنا أستعيد منظر ترعتنا الشرقية ، وغيطان القطن ، وشجر السيسبان الذي يدلي شعره الطويل بدلال في الماء ، وأغصان التوت ، وميل جذع الكافور.

نعم . ذكرني بكل ذلك ، و يدي تمسح شعره الناعم ، وهو بدوره يمسح خطمه في ملابسي الكاكي . حسنا .لقد ضرب بروجي طابور التمام وعلي أن أذهب الآن . أمرق عبر الأسلاك الشائكة . لو رآني أحد الضباط فستكون محاكمة عسكرية . لقد مرقت بسهولة . أنا الآن في كتيبتي . لكن ياالله، الجرو يتبعني . تعال صغيري ، ستكون معي في أمان !

• مشاجرة (بعد يومين من المشهد السابق ، الضابط يوري جاء متحفزا ومعه مجموعة من الرتب ، في الفاصل بين طابورين ، نفس المكان ، لكنه هذه المرة في معسكرنا الفقير حتى من قلة ماء) .

هب" يوري " في وجهي ، وأخبرني أنه قد علم من مصادره الخاصة أن الكلب معي ، ولا داعي لحدوث مشاكل ستكون نهايتها خسارة جسيمة لي ، وعلي الآن أن أعيده له على الفور .

نظرت نحوه في امتعاض ، قلت بحدة : الكلب معي ، وقد جاء برغبته ، لم أضربه على قوائمه؟ .

اتجه للملاجيء يبحث عنه ، منعته بالقوة ، كاد يتطور الأمرإلى مشاجرة حامية بين العساكر المصريين والضباط الروس ، قلت له : لو أنت عادل ، أتركه يختار !

بالإشارات والإيماءات كان الاتفاق قد أبرم على أن يخرج الكلب ، ويختار صاحبه .أليس هذا من أبسط حقوق الكلاب؟!

وافق الجميع ، وطبّ قلبي من الرعب ، لا حبا في الكلب، فلم تكن قد توثقت بيننا عرى صداقة ما ، ولكن خوفا من مرارة الوحدة ، وارتباك الفقد . لم يكن يمثل لي شيئا سوى الصحبة . دخل الصول إدوارد ، وأخرجه من قلب الملجأ ، ثم أطلقه في الساحة القائظة .

الشمس في السماء حامية ، تبخ صهدها، والـروس حمـر الوجوه ، رأيتهم قد علقوا (زمزميات) مثلجة ، ونحن نكـاد نمتص الزلط لنرطب حلوقنا .

خرج الجرو ، هز ذيله ، وشمشم بأنفه الأفطس قليلا ، واتجه بهدوء إلى حيث يقف الضابط الروسي ، قلـت في عقلـي : " آه .. ياقليل الأصل.. أهذا ثمن عنايتي بـك يـومين ؟ " ، وفي اللحظة التي تهيأ فيها خصمي لاقتناص الجرو ، جرى مـسرعا نحوي ، وتشبث بي ، وراح يمسح خطمه في الأفرول ، صـفق العساكر ، وارتفعت عبارة " الله أكبر " ، أما الـروس فقـد انسحبوا في خزي ، ولكنهم كانوا شرفاء وعند الكلمة الـتي وعدوا بها . فلم يشتكوا لقائد الكتيبة التي كان من السهل عليه حبسي ، ونزع شريطي العريف من على كتفي . لثمت الوجه الصغير الذي راح يهوهو هوهوات واهنة ، والعساكر مـسهم الفرح فأطلقوا علي الكلب من يومها اسما لاينُسى "الروسي".

• مشهد يومي متكرر :
(الروسي في الطابور / مطار غرب القاهرة / على بعد ٤٠ كم من العاصمة) ..

مع الوقت صار الكلب رفيقا يعتد بـصداقته ، ويبـدو أن العساكر لم ينسوا موقفه الشجاع يوم (حق تقريـر المـصير) رغم أنه لم يكن يعي الأشياء فـأحبوه ، وإكرامـا لي صـار أنيسهم . كنت أقاسمه طعامي المحدود ، فإذا جـاءت سـيارة

التعيين ، وقف معي في الصف ، أو سار خلفـي ، وفي يـدي الأروانة ، وهو يهز ذيله فرحا . قاسمني كل ما آكل ، الجراية ، واليمك ، وبعض اللحم المسلوق ، واكتشفت أنه يحب الشاي، وكان من عادته أن يقوم بنوبة حراسة في أيام خدمتي الليليـة ، وعبر أشهر قليلة نما جسمه بشكل ملحوظ ، فدربته أن يختفي وقت طوابير التمام ، وأثناء الاصطفاف في خندق مواصـلات كان يصنع له مساحة معقولة من الظل . وبمرور الأيام تم عرفياً اعتماد تعيين له مثله مثل أي عسكري ، فكان يصر أن أحضر له أروانته الخاصة ويقف قبلي في الطابور ، ويتاويله من ينساه أو ينتقص حقا له . في إحدى المرات جاء التعيين قليلا ، ورفـض الصول بركات أن يعطي له نصيبه ، أشاح بيده : كلب أيـه اللي يشاركنا أكلنا ؟!

خرجت من الصف ، ودوّرت الكلـب مكتـب لقائـد السرية .. صفقت بيدي : أفندم . الكلب متظلم .

ضحك متعجبا : أدخله لأنظر في الأمر !

كنت قد دربت الكلب على الحركات المعروفة من"صفا" .. " إنتباه " .. " إثبت ". وكافة المواقف العـسكرية . دخـل خلفي مشدود الجرم ، صرخت فيه : إنتباه . وقف على قائمتيه الخلفيتين كالفرس . قلت للقائد : لم يرض الصول أن يصرف له تعيين . كيف يعيش بلا طعام وهو لا ينطـق ولا يـتكلم مثلنا؟ صاح بي القائد : إرسل في طلب الصول حالا . وحـين

حضر ، وبخه القائد بعنف : ألا يوجد في قلبك رحمة ياصول ؟ الفرد ده يأخذ تعيينه مثله مثل العساكر . وأي تكسير للأوامر معناه سجنك .

خرجت فرحا ، وأنا غير مصدق . استدعاني القائد وهمس في أذني : ولد يامحمد ياخليل . لا تزودها أكثر من ذلك !

• الرحيل إلى عتاقة

(مشهد ليلي / في حضن الجبل .. الكواريك ، والمعدات ، كل شيء جاهز للصعود واحتلال التبة) ..

جاءت الأوامر أن يتم دفع مقدمة للتجهيز وتم اختياري مع عشر أفراد للصعود بالطائرة الهليكوبتر . كانت الطائرة ضيقة ولا تستوعب أدوات التجهيز الهندسي كلها ، أخبرت الكابتن أن " الكلب " سيطلع معنا ، فهو لن يفارقنا . رفض ركوبه تماما ، ولكي يغلق هذا الطريق، أدار لي ظهره ، وجاءتني كلماته : عشر أفراد مع المعدات . أختر . أنت أو الكلب !

لم أدر بنفسي إلا أن اخترته ،حملته، ودفعته في جوف الطائرة ، وأوصيت عليه الزملاء ، فسوف نلحق بهم صعودا على أقدامنا في الصباح . أقلعت الطائرة ، ورحنا نصعد ، ولم أشعر بالأرهاق في حياتي مثلما شعرت في هذا اليوم .

حين وصلنا إلى القمة إرتمينا على الأرض ، ولمحته قادما كالصاروخ نحوي ، فاحتضنته ، وقمت بتهدئة خاطره . من

الإرهاق نمنا في أماكننا ، وكان "الروسي " يشاركني البطانية الصوف الرمادية ويدس جسده المرتجف تحت الغطاء ، وينظر نحوي في امتنان أكيد .

• يوم الذئاب

(جبل عتاقة / القمة في يوم ماطر عاصف) ..

كان يوما مزعجاً ، فبعد أن انتهينا من التجهيز الهندسي لحفر المدافع ، وملاجيء الأفراد ، كان علينا أن نستريح قليلا ، ويبدو أن الأعمال الشاقة التي كلفنا بها جعلت أفراد الخدمة يغرقون في نوم عميق . كان القمر مخنوقا بالسحب المتكاثرة ، والريح تصرصر في عتو بالغ . ما ندري إلا بنباح الكلب ، وعواءات تتردد في الجبل ، ويرجع لنا الصدى عميقا ، صدى نباح الكلب مشروخا . رغم الظلمة فتح رجال " الكينجي " أعينهم ، واتجهوا من كافة السرايا ناحية النباح المختلط بعواء ونهش ، وارتطام أجساد بدوي مكتوم .

كانت معركة بالغة العنف بين قطعان الذئاب الجائعة التي زحفت بالليل لالتماس ما تأكله ، فتصدى " الروسي " وحده، وفي شجاعة بالغة حارب ولم يمكنهم من التسلل إلى الموقع .

رأيناه على ضوء البطاريات الميدانية غارقا في دمائه ، وإحدى قوائمه الأمامية معلقة على عرق رفيع وبقايا لحم قليل . كان يلهث ويخرج لسانه من التعب . توقعنا كلنا أن

يلفظ أنفاسه في دقائق . لكن مر في ذهني خاطر : لما لا نحاول إنقاذه وهو الذي تصدى للعدوان في جسارة ؟

ها هي روحه تكاد تزهق أمامنا . حملته وجريت إلى حيث السرية الطبية . كان أفرادها قد صحوا على جلبة وضجيج الهجوم المباغت. قام الطبيب بعمل جراحة عاجلة . ضمد الجروح البالغة،والكلب يغالب ألمه ، ويصارع الموت بعزيمة لا تلين .

حين أشرقت شمس الصباح كانت جثتي ذئبين ممددتين ، وقد ماتا في المعركة. لم نرها في الليل إذ يبدو أنها زحفت للفرار فلم يمكنها النزيف من ذلك . بعد هذه الواقعة تحول "الروسي " إلى بطل قومي ، وبعد أن استقر بنا المقام جاءت كلاب بلدية أخرى ، كنا نعطف عليها بالجراية الفائضة أما هو فقد كان طعامه معنا في نفس الدشمة !

• التوقيع حضور وانصراف :
(أيام النزول في إجازة / قمة الجبل / الساعات المتأخرة من الليل) .

تنبسط سيناء أمامنا كسجادة صفراء من الرمال الموجعة ، والعسكر اليهود في نقاطهم الحصينة ، والعام ١٩٧٢..

كنت أحصل على إجازتي الميدانية ، وأجهز نفسي في الليل، لأكسب وقتا ، وأظل أهبط في طرق متعرجة ، والكلب

يسبقني ، ويتحسس الطريق ، فإذا ما وصلت إلى السهل المنبسط، كان علي أن أقطع مسافة تتراوح بين ٧-١٠ كيلومترات ، في مدقات حيرية تحوطها حقول ألغام ، وكان الكلب دليلي ، وعندما أصل الطريق الأسفلتي ، ينتظر معي حتى اطمئن أنني ركبت ، فيهز ذيله ، ويظل واقفا حتى تبتعد العربة (الزل) الضخمة ، فيعاود الصعود ، ويرتمي على فراشي متحسسا أشيائي (هكذا أخبرني العساكر).

ويوم عودتي من مدينتي بعد انقضاء ستة أيام هي مدة الإجازة الميري ، كنت أعرف أنه سيكون في انتظاري ، ليس على الطريق الأسفلت ، بل في أي منحنى من منحنيات المدق ، إذ يهبط منطلقا كالقذيفة ، على بعد خمس أو ستة كيلومترات . أشعر بلهاثه ، وجريه المذهل . حينها أجثو على ركبتي ، وأنتظره ليندفع في أحضاني ، وأراه يضع قائمتيه الأماميتين على كتفي ، يتشممني ، ثم يهبط على الأرض ، يدور دورتين قبل أن يسبقني إلى حيث الصعود المرهق . هل تأخر مرة واحدة ؟

لا أعتقد ، ربما تغير المكان ، ولكن حضوره كان مؤكدا كما الحقائق الكونية العليا .

• **يارب .. المغص يقتلني .. إنني أموت**
(عتاقة أيضا .. الليل ، شتاء ١٩٧٢، وأنا أغادر الدشمة وحدي) ..

لم يكن هذا واردا أبدا : أن يتجدد ألمي ، أفقد شعرت بمغص هائل يناوشني منذ الصباح . كسلت ، واكتفيت بكوب من الليمون ، وبرشام الأسبرين ، وراحة في الملجأ من الطوابير وإجراءات التمام . في حوالي الواحدة صباحا تجدد الألم ، وعصف بي ، شعرت أنه سيقضى عليّ . لم أرد أن أزعج أحدا ، تسللت وأنا أقاوم المغص ، في طريقي للسرية الطبية ، كانت عند الطرف الآخر من قمة الجبل .

الألم يشتد ، وأنا أقاوم . لم أدر بنفسي إلا وأنا أرتمي صارخا بكل ما أملك من صوت . في لمح البصر رأيته بجواري، يجذبني ويشد أطراف السترة ، ثم ينبح ، ويلحس بلسانه رأسي، لقد غلب تردده إذ اختفي ، ولم أره إلا بعد دقائق وخلفه زملائي العساكر الذين أتوا من الطرف الآخر . حملوني وأنقذوني من موت محقق .

كان الكلب يتبعني مراقبا خطواتي دون أن أشعر ، فلما وقعت ، حكى لي الزملاء ، أنه وقف في قلب المعسكر ينبح نباحا مستمرا ، وكان يسكت لحظة ثم ينبح ، ويسبقهم إلى حيث سقطت . مضوا خلفه حتى عثروا علي .

لم أقل للكلب شكرا لأنك أنقذت حياتي . كان بيننا حوار صامت لا يعلمه أحد غيرنا . حوار بالعينين ، بلمسات الكف، بكوب الشاي الساخن نوعا الذي أفتت فيه ربع قالب من البسكويت . وكان قد تعود على مشاغبتي إياه وحين عدت من السرية . نام تحت الدشمة مباشرة ، ورفض أن يذهب حفرته !

• الكلب يلهو

(عتاقة في أيام الإعداد للمناورة الخريف / ١٩٧٢) .

كانت مسرتنا أن نكتشف عالم هذا الكائن الغامض بالنسبة لنا على الأقل . كان له أصدقاء من العساكر وكافة الرتب ، وله أعداء ألداء لا يطيق أن يراهم ، وقد عرفنا ذلك من ترحيبه الحار بمن يحب ، إذ يهرول ناحيته ، ويتمسح في ساقيه ، ويوصله إلى الخلاء إذا ما أراد قضاء حاجته ، أما خصومه ، فهو لايعترف بوجودهم أصلا ، ومستحيل أن ينبح نباحه الفرح المهذب إذا جاءوا لأمر ما . وفي لحظات الصفاء كان الكلب يلهو . أحضر قائم خشبي طويل ، وأسنده على جدار الدشمة ، وأضع حبة عنب ، وأجعل قطعة الخشب تأخذ ميلا لأسفل ، وأصفر بعد تتدحرج الحبة ، وما من مرة إلا وينجح في اقتناصها مهما صعبت المهمة . مرة أو مرتين تغلبت

عليه ، فخاصمني ساعة ، بأن توجه لقمة الجبل فهوهو مـــدة ثم عاد معتذرا ، وطلب العنب بلامزاح .

كنت أفهمه، وكان يفهمني . الليل الذي يلفنا بصمته قرب بيننا أكثر، وكانت الفئران تخشاه ، وهو يقوم بمغامراته الليليـــة معها بجرأة ، وكانت البغال التي تصعد بالماء قد ألفته ، وحـــين رفسه بغل حرون ، جاءني للشكوى . فربتت علـــى رأســـه : أتعمل عقلك بعقل بغل ؟ أعقلها أنت !

• يوم الخروج
(كان بعد الحرب بعام ،خريف / جبل عتاقة أيضا ١٩٧٤)..

كان اليهود قد احتلوا أجزاء من الجبل خـــلال الحـــرب ، وقمنا باسترداد تلك الأجزاء ، وكنا قد فقدنا شهداء ، والبعض دخل المستشفى للإصابة ، وهو باق معنا وقد خاض الحـــرب مثلنا تماما ، وتعرض للشظايا والدانات . لكنه لم يبرح عادته في أن يحرس الموقع ، ويباشر خدمته التطوعية .

كنا نجهز أشياءنا للتسليم ، ونعتمد الأوراق ، ونحن في شغل شاغل عنه ، ويبدو أنه كان يرقبنا ، ويشعر أننا سوف نتركـــه ونرحل .

كان عزوفا عن الطعام في أيام ما قبل التسريح ، وكانـــت فرحتنا طاغية أن نخرج من الحـــرب بأرواحنـــا . صـــحيح أن

أرواحنا تلك ناوشتها الجروح ، وأن شيئا في القلب قد انتهك، إلا أن فرحتنا لا حدود لها .

وهو يتمسح بساقي في تساؤل غامض ، وكأنه يستفسر عن مشاعرنا التي انقلبت من النقيض إلى النقيض ، لكـــن ليـــست هناك وسيلة لأقنعه أنه سيأتي معي ، فلم أخـــبره بـــذلك إذ أن العساكر الجدد الذين التحقوا بالكتيبة كانوا قد اعتادوا عليه ، ولم يكن من اللائق أن آخذه منهم مهما كانت درجة ارتباطي به .

قررت أن آخذه فعلا ، إلا أنني سأكون في حياة مدنية ماذا يمثل لي كلب . هذا آخر ما استقر في عقلي . علي أن أتركه ، وسيجد من يعتني به .

جاءت لحظة الوداع العصيبة ،وقفنا نسلم المخل ، وأدوات الميدان ، ورداء الكيما . هائنذا أدور بعيني كي ألمحه ، وأتـــدبر معه أمرنا ، دون جدوى . لم يظهر أبدا . كان شـــيئا غريبـــا ومبهما ، لا يمكنني أن أفسره .

جندت العساكر الجدد للبحث عنه ، وكنت قد أعطيتـــهم الفائض معي من مهمات عسكرية ، حتى أنهم قـــد مـــسحوا الجبل عشرات المرات دون أن يبدو له أثر . هبطت المنحـــدر الضيق لأول مرة وحدي ، لم يكن معي ، وكدت أظن أن ظلي

ساعة العصر هو الكلب وقد تخفي في هذا الشكل المـــراوغ ، لكن لم يكن ثمة نباح . جاء من يحمل لنا الماء من بطن الجبل : هل رأ يتم " الروسي ؟ "

لم يكن الرد إلا كلمة أو كلمتين قيلا في ارتجاف مشوش : لم يعد له وجود .

عند حافة الأسفلت توقعت أن يحضر ، ولقد مرت سيارات كثيرة دون أن أجرؤ على رفع يدي لأوقف أحـــداها . مـــلّ زملائي وقفتي الخرساء تلك ، فمضوا للحياة المدنية الرحبة ، أما أنا فقد وقفت أتلفت ، وهبط المساء رويدا رويدا ،وأحـــاطني الليل من كل جانب.

لم يكن هناك مفر من أن أمضي وحـــدي ، وكـــأنني قـــد خلفت عمرا كاملا من الوحشة ومراوغة الانتظار ، ومطـــاردة الشجن الحزين ، والاحساس العارم بأن ثمة أشياء في الكون لم يصل الإنسان لفهمها بعد .

كنت أمد يدي كالمخدر ، وأنا أصعد سيارة جيش زيتيـــة اللون ، مكتوب على ظهرها بخط دقيق منمق " العين صـــابتني ورب العرش نجاني " ، ومساحة الأصفر تتمدد في قلـــي مـــع صورة ذلك الكائن الفريد الذي لم يغب عـــن بـــالي لحظـــة واحدة !

مفردات

الجراية : خبز الجيش .

اليمك : خضار الجيش .

الكينجي : نوبة حراسة تبدأ من العاشرة مساء وتنتهي الثانية صباحا ..

السرايا : وحدة حربية من وحدات الكتيبة الفرعية .

الدشمة : مكان محصن تحت الأرض ، وهو أنواع : دشمة المدفع ، دشمة الذخيرة ، دشمة أفراد .

الإجازة الميري : هي إجازة الجندي بالميدان من ٦-٧ أيام كل شهر .

المخلة : هي جوال من القماش السميك بها كل مهمات الجندي ما عدا سلاحه . ويطلق على صف ضابط الذي ترقى حتى وصل لرتبة ملازم اسم " ضابط مخلة " .

الزل : (بكسر الزاي) سيارة حربية لنقل الأفراد .

القاهرة : ١٩/٨/ ٢٠٠٤

صدر للكاتب

الشعر :

- الخيول ، مديرية الثقافة بدمسياط ، سبتمبر ١٩٨٢ .
- ندهة من ريحة زمان ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩١ .
- ريحة الجنة ، مديرية الثقافة بدمياط ، ١٩٩٨ .
- نتهجى الوطن في النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، أبريل ٢٠٠٠
- سجادة الروح ، إقليم شرق الدلتا الثقافي ، مايو ٢٠٠٠ .

الرواية :

- رجال وشظايا ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .
- ظل الحجرة ، مركز الحضارة العربية ، أغسطس ٢٠٠١ .
- وميض تلك الجبهة ،إشراقات جديدة ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٨.

* القصة القصيرة :

- خوذة ونورس وحيد ، دار سما ، أبريل ٢٠٠١ .

-كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟ ، المجلس الأعلى للثقافة ، سبتمبر ٢٠٠١ .

-أرجوحة ، مركز الحضارة العربية ، نوفمبر ٢٠٠١ .

-انتصاف ليل مدينة ، اتحاد الكتاب ، عدد ٤٦ ، يونيو ٢٠٠٢ .

-شمال .. يمين ، سلسلة إبداعات شرق الدلتا ، العدد ٤ ، أبريل ٢٠٠٧ .

-مكابدات الطفولة والصبا ، دار الكنوز ببيروت ، يوليو ٢٠٠٧ .

-صندل احمر ، مجموعة قصصية ، دار فكرة للطبع والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٨.

• أدب طفل :

- الحكيم وحماره ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩ .

-بستان فنون - كتاب قطر الندى -العدد ١٣٠ -يوليو ٢٠٠٦.

• دراسات ومراجعات :

-انكسارات القلب الأخضر .مختارات الروائي عبد العزيز مشري . سلسلة آفاق عربية ، العدد ٥٦ ، مايو ٢٠٠٣.

• حوارات صحفية :

- مواجهات ، مديرية الثقافة بدمياط ، مارس ٢٠٠٠ .

-تقاطعات ثقافية ، مديرية الثقافة بدمياط ،مـــايو ٢٠٠١ .

تحت الطبع :

-تحولات الورد .. مجموعة قصصية .

- هواء بحري .. مجموعة قصصية .

- هذا كل ما أشتهي . ديوان شعر .

البريد الإلكتروني :

Samir_feel@yahoo.com

الفهرس